بین یدی عمر

الناشر: دار المعارف ١١١٩ كورنيش النيل - القاهرة - ج. م. ع.
هاتف: ٥٧٧٧٠٧٧ - فاكس: ٥٧٤٤٩٩٩ E-mail: maarof@idsc.net.eg

خالد محمد خالد

بين يدي عمر

الطبعة الثامنة

دار المعارف

مراجع تاريخية

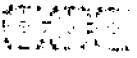

الـكامل : للعلامة ابن الأثير

الطبقات الكبرى : « ابن سعد

أخبار عمر : للأستاذين { على الطنطاوى / ناجى الطنطاوى

أيأذنُ أميرُ المؤمنين..؟

في هذا الكتاب

صفحة

الفصل الأول :

لَيوسِعَنَّهم خيراً ١٥

الفصل الثانى :

ما تقولُ لربك غداً ؟ ٣٧

الفصل الثالث :

أَلأَنَّك ابن أمير المؤمنين ؟ ٥٧

الفصل الرابع :

ولَا خير فينا ، إذا لم نَسْمعها ١٠٣

الفصل الخامس :

لَسْتُ بالخِبِّ ، ولا الخِبُّ يخدعنى ١٢٥

الفصل السادس :

بَشِّر صاحبك بغلام ١٤٥

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

لست أكتب تاريخاً لعمر

ولا أزيد الناس معرفة بعظمته وشأوه . .

ولا أزكّى على الله نفسى بالكتابة عن رجل أحبّه الله واصطفاه . .

إن المحاولة التى أنا بصددها ، أكثر تواضعاً من هذا كله . .

إنى أُصغى إلى أمير المؤمنين ، لا أكثر . . وأتطلّع إليه ، لا أقل . .

وفى دروب التاريخ سنحاول - القراء وأنا - أن نلتقى بالرجل الذى لم تُسعدنا المقادير باللقاء معه فى دروب المدينة . حيث كانت سجاياه وعَظمتُه تملأ الزمان والمكان بما لا عينٌ رأت ولا أُذن سمعت من عدالة الحاكمين ، وزهد القادرين ، وإخبات الناسكين ، وقوة الوُدَعاء الراحمين ، ووداعة الأقوياء المتقين . ! !

أجل ؛ هذا ما نحاول فى هذه الصفحات بلوغه . . أنْ نعيش لحظات فى رِحاب عمر ، ونأخذ من المشهد المكتوب عِوَضَ ما فاتنا من المشهد الحىّ . ونُلقىَ السمع والبصر والفؤاد بين يدى هذا القوىّ الأمين . والمعلم الذى ليس له

بين المعلمين نظير ، ونقضى فى مَعِيَّته لحظات ترفع من قدر حياتنا .

* * *

و « مَعِيَّةُ » أمير المؤمنين ، ليست مثل « مَعِيّات » غيره من الأمراء ، والحاكمين .

إنها شىء مختلف جداً . . فلا مكان فيها لأطايب الطعام ، ومَناعم الشراب ، ومَباهج الحياة . . لا مكان للفُرُش المرفوعة ، ولا للأكواب الموضوعة ، ولا للمارق المصفوفة ، ولا للرَّرَابِىِّ المثوثة .

لا مكان للراحة . . لا مكان للرَهو . . لا مكان للزُلَفَ . .

من أجل هذا ، كان الاقتراب من هذه « المعيَّة » رهيبا ، بقدر ما هو حبيب إلى النفس ، وبقدر ما يُفضى إليه من شرف عظيم .

و « عمر » من الطراز الذى تعمرك وأنت تقرأ تاريخه المكتوب كلُّ الهيبة التى تغمرك وأنت تجالس ذاته وشخصه .

والمشهد المسطور من تاريخه ، لا يكاد يختلف عن المشهد الحى إلا فى غياب البطل عن حاسة البصر . .

أجَلْ . . عن حاسة البصر وحدها . . أما الأفئدة . . أما البصيرة ، فتحسّ وهى تطالع سيرة عمر أنها تُعايشه ، وتجالسه ، وترى رَأىَ العين جلال الأعمال ، ومناسِكَ البطولات التى يتناولها بيد أستاذ عظيم ، جدّ عظيم . .

* * *

ولكن على الرغم مما تفرضه صحبة « عمر » من حرمان وشظَف . . فليس على ظهر الأرض بهجة ، ولا متعة ، ولا نعمة تفوق مباهج ومناعم هذه الصُحبة بحال . . !

فالرجل الكبير فى بساطة ، البسيط فى قوة ، القوى فى عدل ورحمة لا يستريح ولا يترك الذين معه يستريحون ، ولكنه يمنحهم بدلا من الراحة المفقودة ، أعظم ما فى الحياة من سؤدد ، وعبطة ، وتفوق

هذا هو أمير المؤمنين ، الرجل الذى أنجبته البشرية ورباه الاسلام .

هذا هو الحاكم المؤمن الذى إذا ذُكر رؤساء الدول والحكومات منذ فجر التاريخ الإنسانى إلى يوم الناس هذا ، كان أعظمهم ، وأبرّهم ، وأزكاهم - من غير مبالغة - أية مبالغة . . ! !

هذا هو الناسك الذى تفجَّر نُسكه حركة ، وذكاء . . . وعملا . . وبناء . .

هذا هو المعلم الذى صحح مفاهيم الحياة ، وأفرغ عليها نوراً من روحه ، وكساها عظمة من سلوكه ، وكان للمتقين إماماً . . ! !

* * *

تُرى ماذا يذكر التاريخ اليوم من نبئه العظيم ، وبم يَلهج الناس من سيرته الفاضلة ؟ ؟

هل يذكرون فتوحاتِه على كثرتها . . . ؟ ؟ هل يذكرون انتصاراته على روعتها . . ؟

إن سلوك أمير المؤمنين ، يشغل التاريخ ويشغل الناس عن كل شيء سواه .

• ودائماً . وأبداً ، تُظلّ على الحياة صورة ذلك الإنسان الإلهى الذى يجرى فى وقت الحر القائل وراء بعير من أموال الأمة مخافة أن يَبِدَّ ويضيع ، فيحاسبه الله حساباً عسيراً . . ! !

• أو الذى يصطحب زوجته فى الهزيع الأخير من الليل حاملا على

كتفيه وفى يديه جراب دقيق ، وقربة الماء ، ووعاء السمن ، حيث تتولى زوجته أمر سيدة غريبة أدركها المخاض وحيث يجلس هو خارج الكوخ يُنضج لها طعام الوالدات . . !

• أو الذى يتأخر عن خطبة الجمعة ، ثم يجىء مهرولا فى بُردة بها إحدى وعشرون رقعة ، تحتها قميص لم يجفَّ بعد من البلل ، ثم لا يكاد يصعد المنبر حتى يعتذر للناس عن تأخره فيقول . « حبَسنى عنكم قميصى هذا . . كنت أنتظره حتى يجفَّ ، إنه ليس لى قميص غيره . . ! ! »

• أو الذى يستقبل هدية من الحلوى أرسلها إليه عامله على أذربيجان فيسأل الرسول الذى جاء بها : أوَكُلُّ الناس هناك يأكلون هذا . . فيجيبه الرجل قائلا : كلا يا أمير المؤمنين ، إنها طعام الصَّفْوة . . ! ! فيختلج عمر ويقول للرجل : « أين بعيرك . . احمل هديتك وارجع بها إلى صاحبها وقل له : عمر يأمرك ألا تشبع من طعام حتى يشبع منه قبلك جميع المسلمين . . ! ! »

• • •

هذا هو عمر فى ذاكرة التاريخ ، وفى ضمير البشرية .

هذا هو منارة الله فى الدنيا ، وهديته إلى الحياة .

وعلى مائدته الخالية من أطايب الطعام ، الحافلة بأطايب العظمة ، سنقضى أسعد وأرغد لحظات حياتنا . . ! ! !

خالد محمد خالد

الفصل الأول

ليوسعنهم خيرًا

كانت مكة تُودع ضيوفها الذين وفَدوا عليها من شتَّى بقاع الجزيرة ليشهدوا مهرجان « عكاظ » حيث تزهو القبائل بشعرائها المتفوقين ، وحيث تزدان حَلْبة المصارعة بفتيان قريش الأشداء يعرضون ألعابهم فى فن عظيم .

كانت مكة تودع أولئك الأضياف الذين شدُّوا الرحال راجعين إلى بلادهم ، ونُجوعهم – عدا نفر قليل منهم استهواهم البلد الحرام ، فتهيبوا الظَّعْن ، وآثروا المكث .

من هؤلاء النفر ، ذلك الشيخ الذى يقطع الطريق وَهْناً ، مُيمماً وجهه شَطْر دار الندوة ليقضى بها ساعة الأصيل مع رفاقه فى الشيخوخة والذكريات . . !

وإنه لَماضٍ فى سبيله ، إذ لقيه فى الطريق أعرابى قريب العهد بمكة يعمل راعياً لدى واحد من سادات قريش . .

ولا يكاد الفتى يبصر الشيخ أمامه حتى تتحدر الكلمات من بين

شفتيه فى حَمِيَّةٍ وعجَلَة .

- هل علمت النبأ العظيم يا أخا العرب .

- أى نبأ يا بنى . . . ؟

- ذلك الرجل الأعْسَر اليَسَر . .

ويتساءل الشيخ قائلا :

- الذى كان يصارع فى سوق عكاظ . . ؟

- أجل . . . هو . .

- ما باله يا فتى . . ؟

- لقد أسلم ، واتبع محمداً . .

ويُفيق الشيخ من الدهشة ، ويقول وقد كست وجهَه حكمةُ السنين :

« أمَا والحق ، لَيُوسِعَنَّهم خيراً . أو لَيوسِعَنَّهم شراً » . . ! !

* * *

أما الأعْسَر اليَسَرَ الذى كان يُصارع فى سوق عكاظ ، فهو عمر . .

وأما نبوءة العربى ، فقد جاءت كفَلَق الصبح ، وضوء النهار .

ومن ذلك اليوم ، لم يعد الأعسر اليَسَر . . « عمر بن الخطاب بن نفيل بن عبد العزى » ، من بنى عَدِىّ . . لم يعد ذلك الذى يُصارع الأشداء فى سوق عكاظ ، بل صار « الفاروق عمر » ، الذى سيصارع الباطل فى جزيرة العرب ، ، أوّلَ النهار . . وفى كل الدنيا ، آخِرَه . .

سيكون الرجل الذى يملأ أرض الناس عدلا ، وأمْناً ، ورحمة ، وهُدى . .

سيكون « المعلِّم » الذى يَبلُغ الرشد الإنسانى على يديه رُشدَه . .

و « الأستاذ » الذى تجلس الدنيا عند قدميه . . !

أجل . . سيكون الإنسان الذى يرفع الله به من قَدْر البشَر ، وقَدر الحياة .

° ° °

« لَيوسعنهم خيراً ، أو لَيُوسعنهم شرًّا » . . ! !

كيف أدرك الشيخ العربى ، مصاير الأمور على هذا النحو السريع الفَطن . . ؟

الحق أن الذى قُدر له أن يرى « عمر » فى شبابه ولو رؤية عابرة ، قادر على أن يردد نفس النبوءة ، ويستشرف الغد الذى استشرفه الشيخ فى غير عَناء .

« فعمر » ، ذلك الرجل القوى ، المجدول اللحم ، المشرب بالحمرة ، الغليظ القدمين والكفَّين ، العريض المنكبين ، الفارهُ الشامخ العملاق ، الذى لم يَسِر قط مع قوم إلا كان أعلاهم رأسا من فَرَط طوله .

الرجل الذى كان كما نَعتُوه : « إذا تكلم أسمع وإذا مَشَى أسرع ، وإذا ضرب أوجع » .

« عمر » الذى لم يَخف قط فى حياته أحداً ، ولم يختلج جنانه الصامد أمام رهبة أو فزع .

« عمر » الذى ورث من طباع أبيه ، صرامة لا تعرف الوهْن ، وحَسْماً لا يُؤرجحه التردد ، وتَصميماً لا يقبل أنصاف الحلول .

« عمر » هذا . . من اليسير جداً استكشاف حقيقته ، وقراءة دخيلته والتنبؤ بمصاير الأمور بين يديه ، فإما أقصى اليمين ، وإما أقصى اليسار .

إنه أبعد الناس عن ازدواج الشخصية ، وتعددها . .

ومركز الثقل فيه ، لا تتناوَبه أشتاتُ نفس مُوزَّعة ، ولا تميل به أهواء متنافرة . إنما تحتشد به شخصية متَّسقة حافلة .

فحيث يوجد « عمر » توجد كل شخصيته ، وكل إرادته ، وكل منهجه . .

لا ينقسم على ذاته أبداً . . ولا يضع إحدى قدميه هنا - وثانية القدمين هنـاك . .

إنه رجلٌ « جَميعٌ » تتحرك كل قُدراته فى دقة واتّساق . . يفوقان دقة الجيش المدرَّب واتّساقه . وليس للذرة واحدة فى كيانه فرصة للتخلف . . أو للتلكُّؤ ، أو للنَّشاز . . !

إنها طبيعة فذّة قلّما تتكرر ، وقلما يكون لها فى الأعداد الهائلة من البشر نظير .

ولقد كان الرسول عليه الصلاة والسلام يدرك عظمة الطبيعة البشرية التى رُزِقها « عمر » . . وكان يعرف ما تنطوى عليه من أصالة واقتدار . . كما كان يعرف ما يتمتع به « عمرو بن هشام » من حاه ونفوذ .

من أجل هذا دعا ربه الكبير أن ينصر الإسلام بأحب الرجلين إليه - « عمر بن الخطاب » ، أو « عمرو بن هشام » . . .

ولقد ربح الإسلام أحبَّ الرجلين إلى الله ، وكان « عمر بن الخطاب » صاحب الفطرة القوية السويَّة الجيَّاشة . . . ألقى ثقله كله فى كِفَّة التوحيد ، على حين ألقى الآخر ثقله فى كِفَّة الشرك . ولكن مصير الميزان تقرر فى نفس اللحظة التى أصبح فيها « عمر » قوة فى إحدى كفتيه ، واستبانَ غَدُ الإسلام كضوء الفجر منذ قال « ابن الخطاب » : « لا إله إلا الله ، محمد رسول الله » . . !

يقول عبد الله بن مسعود : « ما زلنا أعزة منذ أسلم عمر . كان إسلامه فتحاً ، وكانت هجرته نصراً ، وكانت إمارته رحمة . ولقد رأيتُنا وما نستطيع أن نصلى بالبيت حتى أسلم عمر » . . ! !

° °

هذا العنفوان الوثيق فى شخصية « عمر » . كان يبدو كما لو كان تطرفاً ، وتزمُّتاً ، وغِلْظة . .

فى الجاهلية ، كانت مُحادَّته للإسلام ، تكاد وحدها تعدل أذى قريش . . وكان تشبثه بموقفه يَدحَض أى أمل فى عُدوله عنه ، حتى لقد صوّر أحد المسلمين يومئذ يأسه من إسلام « عمر » بقوله : « إنه لن يسلم حتى يُسلم حِمار الخطاب » . . ! !

وفى الإسلام ، صارت مُحادَّته للوثنية تكاد تعدل وحدها مقاومة الإسلام بأسره ، وصارت صرامته العادلة العاقلة مضرب الأمثال ، حتى لقد كان الوحيد بين الصحابة الذى يُكثر من مناقشة رسول الله . والذى يقترح أحيانا على الرسول ، فيُمضى رسول الله ما اقترح ، ويَسن ما ارتأى . وكان شديدَ الوطأة على خصوم الإسلام بصورة تفرَّد بها عمن سواه .

بَيْد أن ذلك لم يكن من « عمر » تطرفا ، ولا تزمتاً ، ولا قسوة . إنما كان تفوُّقاً . .

ذلك أن الطبيعة التى كانت تحتشد مَواهبها وُقدْراتها على هذا النَّسق الفذّ الذى توفَّر « لعمر » ، لا يكون لصاحبها الحيار إلا فى مستوى هذا التفوق المهيمن العميم .

وهكذا كان « عمر » . .

رجل مُزوَّد بطبيعة مشحوذة قوية ممتلئة . . طبيعة مستقيمة القصد ،

شديدة الأسْر ، سَواء فى ضلالها وهُداها . .

وهى إذا اتخذت موقفاً ، تبلغ فيه المدَى . لا استجابة لنزعة الغُلوّ ، بل تحقيقاً لإمكاناتها الحافلة ، وتعبيراً تلقائيًّا عن تفوُّقها وامتلائها . .

إن ثمَّة فارقاً كبيراً بين التفوق والتطرف . .

الأول ، يشبه النمو الطبيعى .

والثانى . يشبه مرض نمو العظام .

الأول تثمره خلايا حيّة عاملة ، وطبيعة سوية نامية ، والثانى عَرَض من أعراض العلة والسقم . .

والتفوق ، قوة عادلة تتضمن الحكمة ، ولا تستعلى على الحير ، أو تتوارى من الحق . .

وهكذا كان الذى مع « عمر » التفوق ، لا التطرف . . والقوة ، لا القسوة . .

وإن الظروف التى أزّحتْ إسلامه وأحاطت به لَتكشف جوهر طبيعته ، وتوضح هذا أوضح بيان . .

* * *

ذات يوم لاهِب ، خرج من داره حاملا إصراره الحَرُور ، وسيفه الجسُور ، مولّيا وجهه شطر « دار الأرقم » حيث كان الرسول ونفر من أصحابه المؤمنين يذكرون الله هناك ، ويعبدونه .

وفى الطريق يلقاه « نُعيم بن عبد الله » فيرى ملامحه تتفجر بأساً ونقمة ، فيقترب منه فى وَجَل ويسأله :

– إلى أين يا « عمر » . . ؟

فيجيبه : « إلى هذا الصابئ الذى فرَّق أمر قريش وسفَّه أحلامها ، وعاب دينها ، وسب آلهتها فأقتله » . .

ويَدهل « نعيم » عن إحساسه بالموقف ، وبالخطر الذى ينجم عن معارضته لعمر ، فيقول له :

— « لبئس السعى سعيك ، وبئس الممشَى يمشاك » . . !

ويخشى « عمر » أن يكون « نعيم » قد أسلم ، فيقول له :

— « لعلك صبَأْت . . . إن تكن فعلتَ فواللَّاتِ والعُزَّى لأبدأنَّ بك » .

و « نعيم » يعرف تماماً أن « ابن الخطاب » يعنى ما يقول ، فيُنهى الحِوَار بعبارة تلوى زمام « عمر » ، إذ لا يكاد يحتمل وَقْعَها الشديد :

— « ألا فاعلم يا عمر أن أختك وزوجها - سعيد بن زيد - قد أسلما ، وتركا دينك الذى أنت عليه » . .

أخته . . . ؟ ؟ فاطمة بنت الخطاب . . ؟ ؟

مالَه ولدار الأرقم إذن ، وقد اقتحم الخطر داره هو وعَرِينه . ؟

وهكذا ، أعدَّ السير إلى دار خَتَنِه « سعيد » . .

* * *

فى جوْف الدار كان « سعيد بن زيد » ، وزوجته « فاطمة بنت الخطاب » و « خبَاب بن الأرتّ » ، وملء أيديهم صحيفة فيها من وحى الله آيات يتلونها ويتدارسونها .

وقَرع الباب قرعاً رهيباً . .

وقيل : مَن ؟ . قال : عمر . .

أمّا خباب ، فسارع إلى مخبأ قَصِىٍّ فى الدار ، سائلا الله حفظه وغَوثه . . ! !

وأما أخت « عمر » وزوجها ، فقد استقبلاه لَدَى الباب يغشاهما ذهول المفاجأة ، ولم تنس بنت الخطاب فى هذه الغمرة الداهمة ، الصحيفة الكريمة التى بها آى الله فخبأتها تحت ثيابها .

قال « عمر » والهول ينقذف من عينيه : ما هذه الهينَمة التى سمعتُ عندكم . . ؟

أجابا : لا شىء . إنها مجْوَى وأحاديث . .

قال لهما : سمعت أنكما صَبَأْتُمَا . . .

قال سعيد : « أرأيت يا عمر إن كان الحق فى غير دينك » . ؟ ؟

ولم يمهله « عمر » حتى يتم حديثه ، فوثب عليه فى عنفوان لَجِب ، وأخذ برأسه يجرّه ويلويه ، ثم ألقاه أرضاً ، وجلس فوق صدره . . وحين تقدمت أخته لتدافع عن بَعْلِها أصابَتْها منه لطمة أدْمت وجهها فصاحت به وكأنها بُوقٌ سماوى يُدوِّى ويصلصل :

— : « يا عدو الله ، أتضربنى على إيمانى بالله الأحد ؟ ألا ما كنت فاعلاً فافعل ، فإنى أشهد أن لا إله إلا الله ، وأن محمداً رسول الله » . . !

والآن ، انتبهوا جيداً ، فإن اللحظة الحاسمة تدق ، مُؤْذنة بالتحول وكاشِفةً عن الجوهر النقى القوى الذى صُنعت منه فِطرة هذا الرجل الكبير . فبينما هو فى بأسه الشديد ذاك ، يجابهه الحق عالى الصيحة ، فيلين له « عمر » ويتخشَّع . .

ذلك أن الكلمات المندلعة من إصرار أخته كانت تحمل كل رنين الصدق .

هذا الرنين الذى يعرفه ويميزه من له فطرة كفطرة « عمر » ، تماماً مثلما يدرك الفارس الأصيل المحرب ، أصالَة الخيل من صهيلها . . ! !

ولو كانت قوة « عمر » قوة عناد وقساوة ، لتمادت فى ضَراوتها ولبلغت من الموقف ما تريد .

أما وهى قوة تفوّق وبطولة ، فقد استجابت من فورها لهذا الجلال المتبدى أمامها ، لهذا الرأس العزيز المرتفع ، رأس « فاطمة بنت الخطاب » المؤمنة بالله وبرسوله . . ولهذه الكلمات المتوهجة بنور الحق الصادحة برنين الصدق .

وفجأة ينهض من فوق صدر « سعيد » . ويبسط يده الضارعة إلى أخته ، سائلا إياها أن تعطيه الصحيفة التى رآها تبرز من تحت ثيابها :

هات هذه الصحيفة ، لأنظر ما فيها .

وتجيبه أخته : « كلا ، إنه لا يمسُّه إلا المطهَّرون ، اذهب فاغتسل وتطهر »

ويمضى « عمر » كالأنفاس الوديعة الهادئة ، هذا الذى كان من لحظات إعصاراً يُدمدم . . ويعود وَلحيته تقطر ماء ، وتعطيه أخته الصحيفة ، ويقرأ :

« بِسْمِ اللهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

« طه . ما أنزلنا عليك القُرآن لِتشْقَى ، إلاَّ تَذْكِرةً لِمَنْ يَخْشَى . تَنْزِيلاً مِمَّن خلق الأرْضَ والسَّماواتِ العُلَى . الرَّحْمنُ على العرْشِ اسْتَوى . لَهُ ما فى السَّماواتِ وما فى الأرْضِ ، وما بَيْنهما وما تحْت الثَّرى . وإنْ تَجْهَر بالقَوْلِ فإنَّه يعْلمُ السِّرَّ وأخْفى . اللهُ لا إله إلاَّ هُو لَهُ الأسْماءُ الحسْنَى » .

ثم يتابع التلاوة فى خشوع وتبتُّل :

« إنَّنى أنا اللهُ لا إله إلاَّ أنا فاعْبُدنى وأقِمِ الصَّلاةَ لذكْرى ، إنَّ الساعة آتية أكادُ أخفيها لتُجْزى كُلُّ نَفْس بما تسْعَى ، فلا يصُدَّنَّك عنها من لا يُؤْمِنُ بها واتَّبعَ هَواهُ فتردى » . .

ويعانق عمر الصحيفة ثم يقبِّلها . وينهض واقفاً ويقول :

« لا ينبغي لمن هذه آياته ، أن يكون له شريك يُعبد معه ، دلُّوني على محمد » !

وهنا يبزغ « خبَّاب بن الأرت » من مخبئه ، ويهرول صوب عمر صائحاً : « أبشر يا عمر ، فو الله لقد استجيب دعاء الرسول لك » .

ويتخذ عمر سبيله إلى الصفا حيث دار الأرقم ، وهناك بين يدى رسول الله عليه الصلاة والسلام يدخل فى الدين الحق ، ويكبر المسلمون تكبيرة تهتز لها مكة جميعاً . . !

* * *

فى مثل لمح البصر ، تمَّ هذا التحول الهائل العظيم ، وانتقل إلى أقصى رحاب الهدى ، رجل كان يقف فى أقصى مجاهل الوثنية .

والطبيعة القوية التى كانت تحتشد لتحرس آلهة قريش من زحف الدين الجديد ، وثَبت الآن وثبة فى الضياء إلى الجانب الآخر من أرض المعركة بكل بأسها وبكل قوتها ، إيَّان لحظة حاسمة أجاد توقيتها وأحسن إعدادها قدرٌ حكيم عليم . . !

لقد كان « عمر » يذود عن مقدسات الجاهلية ، يوم كان يؤمن أنها حق . .

وهو الآن وقد أسلم وجهه لله ، سيضع كل حياته وقوته فى خدمة دين ، آمن أنه الحق . .

ذلك أنه رجل يسير وَفْق إيمانه واقتناعه ، لا وَفق هواه . .

بيد أن إيمانه الأول وإيمانه الأخير لا يستويان .

فإيمانه القديم ، إيمان لا برهان له - برهانه التقليد الذى يحجب عن العقل ضوء الحقيقة ، ويحرم القلب من بهجة الصدق .

أما إيمانه الجديد فمعه برهان . أىّ برهان . . ! !

« إن الله الذى يعبده اليوم ليس من حجر ولا من مَدَر . إنما هو نور السماوات والأرض ، على كل شىء قدير ، وبكل شىء عليم .

« والداعى إلى الدين الجديد ، ليس واحدا من طراز أولئك الكهنة الذين يرتزقون بالأصنام ، ويستمدون سلطانهم من جهالة الناس وترويج الأساطير . . إنما هو « محمد » الذى لم يكن صدقه ولم تكن أمانته موضع ريبة أو شبهة طوال الأربعين عاماً التى قضاها بين قومه عابداً ، قانتاً ، طاهراً ، باهراً .

« وزملاؤه الجدد ، إخوانه فى هذا الدين ، ليسوا على شاكلة الآخرين الذين لا همَّ لهم سوى اللهو واللعب ، والميسر والضياع .

إنما هم رعيلٌ عظيم وَضع وِزره ، وَنضا عن نفسه غرور الحياة الدنيا ، وتهيأ لرسالة كبرى وجهاد عظيم .

أجل . . إن الناس الذين هنا . مع محمد رسول الله ، قد وجدوا عرصاً عظيما يَحيَوْن من أجله . . . . أما الآخرون الذين خلّفهم « عمر » وراء ظهره فيتكفأون على موائد الميسر يزدادون بها سفاهة ، أو يتحلّقون حول الأزلام يستفتونها فى حظوظهم العاثرة . . . أو يطوفون حول أصنام من حجارة نحتوها بأيديهم ثم خرّوا لها سُجّداً .

هنا إيمان حق ، معه من الله برهان .

هنا إيمان يرفع الرءوس عالية . ويصل الإنسان بالله دون ما حاجة إلى وسيط أو شفيع .

وطبيعة كطبيعة « عمر » ، ترفض التبعية ، وتستعلى على الإذعان والرضوخ ، ليس لها مجال حيوى ولا مُناخ طبيعى إلا فى دين كهذا الدين حيث يقف الناس سواسية كأسنان المشط ، وحيث أكرمُهم عند الله أتقاهم ، وحيثُ يَعبِقُ الطهر ويتضوَّع الحق ، وحيث يتلو « محمد » آيات ربه فتتبدَّى من خلالها معالم الحياة الوافدة ، والمصاير الواعدة وتسمع الألباب فيها صلصلة الحقيقة ، وتجد الأفئدة معها بَرْد اليقين . . ! !

* * *

إن القوة نفسها والأصالة نفسها ، تعملان فى الطبيعة الفريدة « لعمر » بعد أن صار الإسلام له ديناً . ولكن هذه الطبيعة بعد الإسلام تتفوق تفوقاً بعيداً عنها قبل الإسلام . ذلك أنها وَجدت نُهاها ، وهُداها ، ولم يعد مجالها تلك الأصنام الهامدة حول الكعبة ، أو تلك الشئون الضحلة لحياة مكة ، بل تعلقت هذه الطبيعة بالسماء وبالأرض جميعاً ، وصار موضوع نضالها ديناً يدرك بفطنته المشرقة أنه لن يقتصر على أرض الرمال ، والإبل ، والشِّعر ، بل سيَزْحف مشرِّقاً ومغرِّباً حتى يغمر العالمين . . ! !

من أجل هذا يبدأ القلق الذكى فى الطبيعة العمرية من أُولَىٰ لحظات إسلامه . فيقول لرسول الله عليه السلام :

« ألَسْنا على الحق فى مماتنا ومَحيانا . . ؟ ؟ » .

ويجيبه الرسول : « بلى يا عمر . والذى نفسى بيده إنكم لعلى الحق إن متم وإن حييتم » .

يقول « عمر » : « ففيم الاختفاء إذن . . ؟ والذى بعثك بالحق لَتخرجَنّ ، ولنخرجن معك » .

ويخرج الرسول والمسلمون معه فى صَفَّين . « عمر » فى صف ، و « حمزة » فى الصف الآخر

وبهذه الخطوات التى استحثَّها « ابن الخطاب » ، بدأ الزحف الطويل المبارك الذى استمر ألفاً وأربعمائة عام . ولا يزال . . ! !

إن الرجل الذى جاء منتضياً سيفه ليقتل رسول الله ، قد تحوَّل فى لحظات سعيدة إلى مؤمن بالله وبرسوله . فماذا عساه يفعل الآن . ؟

ما الامتداد الذى ستواصل طبيعته المسير فيه .

وما ردُّ الفعل الذى سيكيف وجهتها الجديدة . ؟

إن خواطره السريعة لَتُهِلُّ . . وكأنها تتحرك وفق « خارطة » مفصلة قد وُضعت سَلَفاً . .

ولسوف يُتابع عمر « المسلم » أداء المهمة التى بدأها عمر « الوثنى » ولكن فى مستوى أعلى ، وغاية أرفع . .

أجل ، لقد خرج من داره مُنتضياً سيفه قاصداً دار الأرقم ليصرع الباطل .

حسن . فليمض لغايته ، وليُواصل مهمته . . غير أنه الآن لن يصرع الحق الذى كان يتوهمه باطلا . . بل سيصرع الباطل الذى طالما توهمه حقاً . . !

سيصرع الباطل الذى هو باطل ، والذى انخدع « عمر » عن زَيْفِهِ وحقيقته فترة من الزمان .

وإنه الآن ، وقد كُشِف عنه غطاؤه ، ليُدوى بصوته الجسور :

— « والله ، لن أترك مكاناً جلست فيه بالكفر إلا جلستُ فيه بالإيمان » . . !

وإن مع طبيعته من الذكاء والمقدرة ما يجعلها مُهيأة للعمل دوماً ، واضعة عينيها على الهدف أبداً .

وهو لهذا وبهذا ، رجل لا يعرف أنصاف الحلول ، ولا ينام على الضيم لحظة من نهار أو مساء . . والضيم عنده أشمل وأعمّ من أن يكون رهقاً ينزل به ، أو خسفاً يُسامُه . . والضيم أيضاً أن يعجز عن تحقيق ذاته ، وإنجاز مشيئته ، وبلوغ الأمر الذى يريد

وهكذا رأى من الضيم أن يترك معالم جاهليته تعيش ولو حانية كابية ، ومن ثمَّ فإن آثار قدميه فى طرقات مكة حيث كان يدرعُها مندداً بالإسلام ، ومتعثراً ذويه ، لا بد أن تذوب وتتلاشى فى خطواته الجديدة الثابتة التى سيدرع بها الطرقات نفسها مُسبحا بحمد الله ومقدِّساً له . .

وكل مكان رفع فيه عقيرته لاهجاً بأصنام قريش . لابد أن يجلجل فيه بـ « لا إله إلا الله ، محمد رسول الله » . . ! !

أجل ، سيتعقَّب « عمر » كل حركاته ، وكل كلماته ، وكل خلجاته التى ظلت تحمل سخريته بدين الله مدى ستة أعوام ، منذ بدء الرسالة حتى يوم إسلامه . .

سيتعقبها فى كل مطانها ومَواطنها ، وسيضع مكان كل سيئة حسَنة .

سيقتلع جميع الأشواك التى ملأ بها طريق « محمد » وصحبه ، وسيغرس مكانها أزاهير . سيزرعها حباً ، وتفانياً ، وسيشترى أمْن هذا الدين بحياته ، جميع حياته . . ! !

إن طبيعته تنادى الزمان والمكان . بل تُلغيهما إلغاء لتظل لها سيادتها وتفوقها . فإذا أخطأ عمر فى زمان ما ، فى مكان ما . ثم أراد أن يصحح خطأه ، فليس يكفى فطرته الفذة النادرة أن تتجنب الخطأ . بل هى تريد

اقتلاعه تماماً ، واقتلاع الزمان والمكان اللذين كانا للخطأ وعاء . .

ومن ثمَّ فهى تأبى إلا أن تعود للمكان نفسه ، ولو استطاعت لاستردَّت الزمان نفسه لتقول إن ذلك الخطأ لم يكن . ولا كان المكان الذى شهده ، ولا الزمان الذى احتواه . . ! ! !

من أجل هذا مضى إلى كل مكان جلس فيه بالكفر . فجلس فيه بالإيمان - أكان ذلك كافياً . . ؟

لا ، فهناك عمل كثير وقدير ، سيواصله عمر حتى يحسَّ أنه قد طهَّر نفسه من كل آثام جاهليته . .

فهو يذكر أن تمسكه السالف بدين قريش ، كان من أهم أسباب الاضطهاد الذى لقيه الرسول وصحبه . . واليوم وقد آمن ، فلا بد أن يكون إسلامه عاملا حاسماً فى شدّ زِناد المقاومة الإسلامية .

أجل بالأمس كانت وثنيته من الأسباب التى حملت المسلمين وهم قلة ، على الفرار بدينهم إلى « دار الأرقم » حيث يعبدون الله خُفْية . .

واليوم ، لا بد أن يكون إسلامه عاملا حاسماً فى الجهر بالدعوة ونبذ التخفّى والمداراة

وإنه ليذهب إلى رسول الله فيقول :

- « بأبى أنت وأمى يا رسول الله ، ما يحبسك ، فو الله ما تركت مجلساً كنت أجلس فيه بالكفر ، إلا أظهرت فيه الإيمان غير هائب ولا خائف - ألاَ إنا لن نعبد الله سراً بعد اليوم » .

ويستجيب الرسول لرأيه ، وتخرج الدعوة من مكْمنها إلى أرض الله الواسعة .

أفهل يكتفى عمر بذلك . .

كلا ، فلا يزال ثمّة خطوة تبهر الألباب حقاً .

لقد تذكر « عمر » أنه بالأمس كان كفار قريش يأخذهم الزهو لأن « عمر » يَضرب بيده أصحاب « محمد » . . فليمنح المسلمين اليوم زَهواً مثله . . وهو إذا كان لن يستطيع الآن أن يعلو بقبضته رءوس صناديد قريش وظهورهم ، فليرفع من شأن العذاب الذى يلقاه ضعاف المسلمين بأن يشاركهم فيه ، وليأخذهم الزهو ، بأن « عمر » الجسور العملاق المهيب يُضرب مثلما يضربون ، ويُضطهد كما يضطهدون . . ! ! !

نعم . . لن يظلَّ اضطهاد قريش وقفاً على « بلال » ، و « خبَّاب » ، و « عمار » ، و « صهيب » ، وإخوانهم من الفقراء والمستضعفين ، بل لا بد أن يَصْلاه معهم فتى الفتيان هذا ، الذى تسبقه هيبته ، والذى تخلع أمام سطوته الأفئدة والقلوب .

لا بد أن يُضرب « عمر » كما يضربون ، وبهذا لا يصير ضربهم وتعذيبهم دلة تكسر نفوسهم ، وتدعدع كرامتهم ، وبهذا أيضاً يتم « لعمر » إسلامه ، إذ تتم له المساواة مع المسلمين فى دفع الثمن الذى يشترون به راية الله . . . ! !

هكذا فكَّر « ابن الخطاب » . . هكذا فكر صاحب الطبيعة القوية والفطرة السوية .

ولكنْ أنَّى له هذا ، وهو المرهوب الجناب إلى الحد الذى يجعل مجرد التفكير فى مُشَافَهته مغامرة خاسرة . . ؟

إذا أراد « عمر » أن يكون الظافر المنتصر ، فلن يُعييه السبيل ، أما أن يكون المضروب المنهزم ، فهذه هى المشكلة الكبرى التى يحتاج الظفر بحلها إلى جهد كبير .

فمن الذى يجرؤ أن يضرب « عمر » فى قريش كلها . . ؟ ؟

ولكنّ « عمر » قرر أن يرفع من قيمة العذاب الذى يلقاه إخوانه ، بأن يتعرض له ، ويأخذ نصيبا منه .

أجل ، لقد قرر وأراد ، وما دام قد أراد ، فلا بد أن يوجد الطريق . .

ويرسم خُطته ، ويبدأ جولته بأبى جهل ، فيذهب إليه فى داره ويقرع الباب .ويخرج أبو جهل ليجد أمامه « عمر » ، فيغلق الباب دونه .

ويمر بأشراف قريش فى دُورهم متحدياً ، رجاء أن يخوض أحدهم معه معركة يخرج منها بلطمة فى صدره ، أو جرح فى وجهه « ! » ولكنهم جميعاً يتحاشَوْنه ويتحامونه . .

وأخيراً يقرر أن يلقاهم عند الكعبة وهم مجتمعون هناك ، ولا يكاد يبلغهم حتى يستثيرهم بالحديث

ولنصغ إليه يروى بقية ما حدث :

يقول رضى الله عنه

— « وثار إلىّ الناس يضربونى وأضربهم ، فجاء خالى وقال : ما هذا ؟ . . قالوا : ابن الخطاب ، فقام على الحجْر وقال : ألا إنى قد أجرتُ ابن أختى ، فانكشف الناس عنى ، فكنت لا أزال أرى الذين يُضربون من المسلمين ، وأنا لا يضربنى أحد ، فقلت : ألا يصيبنى ما يصيبهم ؟ فجئت خالى ، وقلت له : جوارك مردود عليك . قال . لا تفعل يا ابن أختى . قلت : بل هو رَدٌّ عليك قال : ما شئت فافعل . فما زلتُ أضرب وأُضْرَبُ حتى أعزَّ الله بنا الإسلام » . .

* * *

هذا السلوك الباهر الذى يتبدّى من « عمر » ، إنما ينبثق من طبيعة استوفَتْ كل عناصر الكمال ، والسؤدد . طبيعة لا يَزحَم إخلاصها للمسئولية شيء مَّا ، ولا يشغلها عن صقل جوهرها شاغل . .

والرجل الذى وقف موقفه هذا أوّل إسلامه ، هو الذى سنلتقى به فيما بعد . أميراً للمؤمنين ، وجيوشه تتلُّ سلطان كسرى وقيصر فيصعد المنبر بعد أن دعا المسلمين للاجتماع ، ثم يقول :

- « أيها الناس : لقد رأيتُنى وأنا أرعى غنم خالات لى من بنى مخزوم نظير قبضة من تمر أو من زبيب » . .

ثم ينزل من على المنبر بين دَهَش المجتمعين وتساؤلهم . .

ويتقدم منه رجل لم يُطق على ما رأى صبراً ، وهو « عبد الرحمن ابن عوف » ويقول له : ما أردتَ إلى هذا يا أمير المؤمنين ؟ ؟

فيجيبه « عمر » :

– « ويحك يا ابن عوف ، خلوت بنفسى فقالت لى : أنت أمير المؤمنين ، وليس بينك وبين الله أحد ، فمن ذا أفضل منك . . ؟ فأردت أن أعرفها قدرها » . .

هذه طبيعة مستقيمة ، ليس بداخلها عِوَج ، ولا تصبر لحظة على ما يحول بينها وبين رؤية الحق واتباعه .

ولقد جعلت هذه الفطرة القويمة صاحبها رجل صدق عظيماً ، لا يبغى على ما يعمل جزاء أو شُكوراً . . إنما يعبر عن طبيعته الممتلئة التى وضعها فى خدمة الله ، ونذَرها لدينه . .

وكلما ملأت الرّحب بنشاطها الفذ ، وقدرتها الهاطلة . .

وكلما أخرجت من خبئها وثرائها النفسي الذى لا ينفد . .
وكلما نسجتْ لله راية . وهدَّمتْ للشرك قلعة ، وأدَّت لإنسان حقاً . .
كلما فعلتْ هذا ، كان عمر سعيداً جِدَّ سعيد . . ! ! !

الفصل الثاني

ماتقول لربك غدا؟

لا شيء يميّز الطبائع المتفوقة السويَّة ، مثل نأيها عن الغرور . .

ولو كان ثمَّة رجل ، لا بد للغرور أن يتسوَّر حصونه المنيعة لفرط مزاياه وروعة أمجاده وانتصاراته ، لكان « عمر » . .

فهو يدخل الإسلام فى حفاوة بالغة من الرسول وصحبه .

وهو يرى كيف صار الإسلام ديناً جَهْوَرِىَّ الصوت ، صادح الكلمة ، فى اليوم نفسه الذى اعتنقه فيه .

ويبصر المسلمين الذين كانوا من قبل يَستخفُون من طغاة مكة ، يواجهون اليوم الأذى فى شُموخ ، ويرجُّون مكة بتكبيرهم بعد أن صار « لعمر » بينهم مكان .

ويرى رسول الله ينعته بالفاروق ، بعد أن فرق الله بإسلامه بين الحق والباطل ، وبين الملاينة والمُواجهة .

ويرى نفسه يقترح على رسول الله بعض آرائه ، فلا يوافقه الرسول فحسب ، بل يتنزل به الوحى ، ويصير قُرآناً يُتلى

وفيما بعد . يُضحى خليفة لرسول الله بعد أبى بكر ، وأميراً للمؤمنين ، تفتح فى أيامه « بوابات » العالم لدين الله ، وتزحم راياته جوَّ السماء فى كل أفق .

كل هذا ، ألا يجد الغرور من خلاله ثغرة ينفذ منها ، إن لم يجد أكثر من الثغرات ؟ ؟ . . !

ومع ذلك ، فلا نكاد نعرف نفساً امتنعت على الغرور وتكسرت أمام حصونها المنيعة كلُّ محاولاته ، مثل نفس هذا الرجل الفرد ، « عمر » . !

فمن أين له هذا . . ؟

لا ريب أن لطبيعته واستعداده الفطرى الأثر الكبير الناجع .

ولا ريب أيضاً فى أن الطريقة التى اتصلت بها هذه الطبيعة بالله قد أفاءت عليها مدداً لا يفنى ومقدرة لا تتلجلج . وعروفاً كاملا عن كل ما فى الحياة الدنيا من غرور وزهو .

إن « عمر » نفسه يردُّ إلى الله ، وإلى الدين الذى انتهج نهجه كل ما معه من فضائل ، وهُدًى ، واقتدار . .

ولطالما كان يقول لإخوانه : « لقد كنا ، ولسنا شيئاً مذكوراً حتى أعزنا الله بالإسلام ، فإذا ذهبنا نلتمس العز فى غيره ذللنا » . .

فلننظر كيف كانت علاقة « عمر » بربه . .

لننظر كيف التقت طبيعة قوية . بسُلك قوى ، ليُنحبا الرجل القوى الأمين .

ولسوف نجد كل تصرفات « عمر » تسير وَفق إجلال لله فريد أحل ، إن « عمر » ليخشى ربه خشية ، ويوقره توقيراً ، حتى إنه

ليكاد يذوب ويتحلّل كلما هَوَّمَتْ حوله من بعيد ومضة من ومضات ربه ذى الجلال والإكرام .

وكان لا يَفْتأ يردد لنفسه هـذا اللحن المهيب : « ما تقـول لربك غـداً » . ؟ !

نعم . . « ما تقول لربك غداً » . . ؟

عبارة قد نتلوها نحن فى دعَةٍ ويُسر ، أما هو فكانت تزلزله زلزالا شديداً . . ! !

يقول الأحنف بن قيس :

- « كنت مع عمر بن الخطاب فلقيه رجل فقال : يا أمير المؤمنين انطلق معى فأعِدْنى على فلان فقد ظلمنى . . فرفع عمر درّته وخفق بها رأس الرجل وقال له : تَدعُون أمير المؤمنين وهو معرَّض لكم ، مقبل عليكم ، حتى إذا شغل بأمر من أمور المسلمين أتيتموه : أعدِنى . . أعدِنى . .

« فانصرف الرجل غضبان أسِفاً ، فقال عمر : علَىَّ بالرجل .

« فلما عاد ، ناوله مِخْفقَته وقال له : خذ واقتصَّ لنفسك منى .

« قال الرجل : لا والله ، ولكنى أدَعُها لله . . وانصرف ، وعدت مع عمر إلى بيته فصلى ركعتين ثم جلس يحاسب نفسه ويقول :

ابن الخطاب . ؟ كنت وضيعاً فرفعك الله ، وكنت ضالا فهداك الله ، وكنت ذليلا فأعزك الله . . ثم حملك على رقاب الناس ، فجاءك رجل يَستعديك فضربته ، فماذا تقول لربك غدا إذا أتيته » ؟ ! !

* * *

ما تقول لربك غدا . . ؟

فى هذه العبارة ، يتمثل دين عمر ومنهاجه ، وتستمد حياتُه معاييرها وموازينها .

وفيها يتمثل جواز مروره إلى الدنيا ، وجواز مرور الدنيا بكل طيباتها إليه .

فأمامَ كل لقمة شهية . . وأمام كل شربة باردة . . وأمام كل ثوب جديد تَسَّاقط دموعه . . تلك الدموع التى تركت تحت مقلتيه خطين أسودين من فرْط بكائه ، ويصلصل داخل نفسه هذا النذير « ما تقول لربِّك غداً » . . ؟

هذا هو جبَّار الجاهلية ، وعملاق الإسلام .

هذا هو أمير المؤمنين الذى تفتحت لأعلامه الخافقات أقطار الدنيا ، واستقبل الناس جيوشه كأنها البُشْرَيات .

هو ذا ، يؤمُّ الناس فى الصلاة فيسمع بكاءه ونشيجه أصحابُ الصف الأخير . . !

وها هو ذا يعدو ، ويُهرول وراء بعير أفلت من معطنه ، ويلقاه « علىّ ابن أبى طالب » فيسأله : إلى أين يا أمير المؤمنين ؟

فيجيبه : بعيرٌ ندَّ من إبل الصدقة أطلبه .

يقول له « على » : لقد أتعبت الذين سيجيئون بعدك . . !

فيجيبه « عمر » بكلمات مُتهدِّجة :

- « والذى بعث محمداً بالحق ، لو أن عَنْزاً ذهبت بشاطئ الفرات ، لأُخِذ بها عمر يوم القيامة » . . !

أكان « عمر » يخاف الله خوف العبد الذى يُرهبه قرع العصا ولَذْع السياط . . ؟

لا . وإنما كان يخشاه خشية الحر الذى يرجو لربه وقاراً ، ويضرع إليه إجلالا وإكباراً ، ويخجل أن يلقاه بتقصير – أى تقصير . . ! !

وهذا هو نشيده دوماً :

« كنتَ وضيعاً فرفعك الله ، وكنت ضالا فهداك الله ، وكنت ذليلا فأعزك الله ، فما تقول لربك غداً إذا أتيته » . . ؟ !

* * *

ولكن ، لم كل هذه الخشية الضاغطة . والحياء الداهم ؟

إن « عمر » قد تأدّب على يدى رسول الله أحسن تأدُّب ، وإنه ليُتابع الرسول فى غير جنَفٍ أو ميْل ، وإنه لَذُو نسُك عظيم ، وإنه لَنسيجُ وحدِه فى ورعه ، وإخباته . وزهده ، وتقواه .

أفلا يُؤْ هذا على نفسه القلقة كثيراً من الطمأنينة والراحة ؟

بلى يُؤْ . . لو كان إنساناً آخر غير « عمر » أما هو فلا يرى فى هذا النسُك كله سوى جُهد المُقِلِّ العاجز ، ولا يرى فى توفيق الله له سوى نعمة تستوجب شكراً يليق بها . .

ذات يوم ، يقول لجليسه « أبى موسى الأشعرى » :

– « يا أبا موسى ، هل يَسرُّك أن إسلامنا مع رسول الله وهجرتنا معه ، وشهادتنا ، وعملنا كله يُردّ علينا ، لِقاء أن ننجو كفافاً ، لا لنا ولا علينا » . . ؟

فيجيبه أبو موسى « لا والله يا عمر ، فلقد جاهدنا ، وصلّينا ، وصُمْنا ، وعملنا خيراً كثيراً ، وأسلم على أيدينا خلْق كثير وإنا لنرجو ثواب ذلك » .

فيجيبه « عمر » ودموعه تتحدَّر على وجنتيه كحبَّاتِ لُؤلؤ منثور :

« أمَّا أنا ، فو الذى نفس عمر بيده لَوددْتُ أنّ ذلك يُردّ لى ، ثم أنجو كفافا ، رأساً برأس » . . ! !

انظروا إلى أى مَدًى يهاب الله ويستحى من جلاله ! !

إن رسول الله بشَّره بالجنة .

وإنه لأقوى من كل شهوة وزلّة ، حتى لكأنه معصوم من الخطأ عصمة كاملة . . ! !

ومع هذا يقف دائماً من الله موقف الخشية والحذر والحياء . . .

ولم لا يكون كذلك ، وهو يرى رسول الله نفسه ، يقضى ليلَهُ كله متهجداً متعبدا ، ونهاره كله صائماً ومجاهداً ، فإذا قيل له : يا رسول الله ، لم تتعب نفسك وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر ؟ يجب عليه السلام قائلا : « أفلا أكون عبداً شكورا » . ؟

إنه توقير الله أكثر ما يكون التوقير ، وشكرانه أكثر ما يكون الشكران . .

وهذه هى المدرسة التى تربى فيها « عمر » وتخرج

مدرسة لو لم يخف أهلها الله ، ما فكروا فى عصيانه . ولو لم يكن للإثم عقوبة . ما فكروا فى أن يأثموا ، ولو قال لهم الله : اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم ، ما خطر ببالهم قط أن يعملوا إلا ما يَرضى ربُّهم ويُحب . .

ذلك أن علاقتهم بالله لم تكن بواعثها الفزع . بل كانت حب الله وتوقيره ، والحياء منه .

وإن إنساننا الباهر العظيم « عمر » . ليمثل قمة هذا الفهم السديد .

إنه على يقين بأن أحداً لا يستطيع أن يشكر الله حق شكره مهما تكن حياته فاضلة عادلة مستقيمة .

وإنه ليعلم أن كل شكر لله . إنما هو نعمة جديدة ، تستأهل شكراً جديداً . .

وهو يعلم أن ما أفاء الله عليه من نعمة الإيمان والهدى والإمارة إنما هى من محض فضله سبحانه وتعالى ، وأن الله كان قادراً على أن يختصَّ بهذا سواه ، أمَا وقد آثره هو وقال له : إليك منى هذه العطايا يا « عمر » . . فإن هذا ليجعله يذوب ، ويذوب . . ويكمش ثم يكمش . . . ويقول وقد فجَّر حياءه هذا الشعور : « يا ليت أم عمر ، لم تلد عمر » . . ! !

أو يردد : « ما تقول لربك غداً » . . ؟ !

إنه مصمم على أن يتفوق على ذاته ، ويجاوز كل حدود قُدْراته حتى يحقق أكبر حظ ممكن من العرفان والشكر لبارئه وخالقه وربه .

« فعمر » الذى يقف خلف رسول الله واحداً من أصحابه . .

و « عمر » الذى يصير فيما بعد خليفة لرسول الله وأمينه على أصحابه . .

« عمر » هنا وهناك ، هو هو ، ذلك الإنسان الحاشع الضارع الأوَّاب الذى لا يرجو فى دنياه وأخراه سوى أن ينجو كفافاً لا وزر ولا أجر . . !

إنه لا يطمع فى أكثر من ألا يقف بين يدى ربه خَزيان بسبب خطأ ارتكبه ، أو مظلمة قصر فى دَرْئها ، أو نعمة لم يبذل الجهد فى شكرها ! !

لا شىء يُؤرقه فى نومه ، ويقلقه فى صحوه مثل الخشية من أن يسأله ربه غداً فى عتاب « لماذا فعلت هذه يا عمر » . ؟ ؟

و « هذه » التى هى رمز لأى فعلة مجهولة ، تحمله على أن يقضى عمره كله حوَّاباً داخل نفسه وخارجها باحثاً عن « هذه » . . . ومحاذراً أن يقترف هفوة وهو لا يدرى . . . ! !

من أجل هذا يترك الطيبات والمباهج التى أحلها الله خشية أن تتنكَّر فيها

« هذه » التى يخشى السؤال عنها من الله . ! !

لنقرأ بعض فقرات كتابه إلى عامله على البصرة « عتبة بن غزوان »

« . . وقد صحبتَ رسول الله ، فعززتَ به بعد الذلة ، وقويت به بعد الضعف ، حتى صرت أميراً مُسلَّطاً ، وملكا مطاعاً ، تقول فيسمع منك ، وتأمر فيطاع أمرك . فيالها نعمة ، إن لم ترفعك فوق قدرك ، وتُبْطِرْك على من دونك . . .

« تحوَّط من النعمة تحوُّطك من المعصية ، فلهى أخوفهما عندى عليك ، أن تستدرجك وتخدعك ، فتسقط سقطة تصير بها إلى جهنم ، أعيذك بالله وأعيذ نفسى من ذلك » . . ! !

ويحدثنا جابر بن عبد الله فيقول :

– « رأى عمر بن الخطاب لحماً معلقاً فى يدى ، فسألنى : ما هذا يا جابر ؟ قلت : هو لحم اشتهيتُه فاشتريتُه . فقال : أو كُلَّما اشتهيتَ اشتريت ، أما تخاف أن يُقال لك يوم القيامة « أذهبتم طيِّباتِكم فى حَياتكم الدّنيا » . . ؟ !

* * *

ترى ماذا يكون موقفه من السيئات ، هذا الذى يخاف على دينه من الطيبات . ؟ !

ولكن ما شأن السيئات بعمر ، وهى التى تفرّ منه مذعورة إذا أبصرت نوره على بعد فراسخ ؟ ! !

لقد حرم « عمر » نفسه من طيبات كثيرة ، ومن مَناعمَ لم يحرمها الله عليه ، لأنه كان يرى نفسه عاجزاً عن شكر القليل ، فلم يرد أن يتورط

فى عجز أكثر أمام النعم الكثيرة . . ولأنه كان يحمل فى أمانة كاملة مسئولية القدوة . . ! !

ولو شاء أن يظفر بالمناعم المباحة على كثرتها لظفر بها جميعاً ، ولكنَّ بُطولة روحه وعظمة نفسه ، واستقامة نهجه حملته دائماً على أن يلتزم الكفاف ويختار الشَّظَف

زاره يوماً « حفص بن أبى العاص » ، ، وكان « عمر » جالساً إلى طعامه ، فدعا إليه حفصاً ، ولكن حفصاً رأى القديد اليابس الذى يأكل منه « عمر » ، فلم يشأ أن يكبد نفسه عناء ازْدِرَاده ، ولا أن يُجشِّم معدته مشقة هضمه ؛ فاعتذر شاكراً .

وأدرك أمير المؤمنين سرَّ عزوفه عن طعامه ، فرفع بصره نحوه وسأله :

- ما يمنعك عن طعامنا . . ؟

ولم تنقص الصراحة حفصاً فقال : إنه طعام جَشِب غليظ وإنى راجع إلى بيتى فأصيب طعاماً ليناً قد صنع لى . .

فقال « عمر » :

- « أترانى عاجزاً عن أن آمر بصغار المِعْزى ، فيلقى عنها شعرها ، وآمر برِقاق البر ، فيخبز خبزاً رقاقاً ، وآمر بصاع من ربيب يلقى فى سمنٍ . حتى إذا صار مثل عين الحجلِ صُبَّ عليه الماء ، فيصبح كأنه دم غزال فآكل هذا وأشرب هذا . . ؟ ؟ »

فقال له حفص وهو يضحك : إنك بِطَيِّبِ الطعام لخبير . . ! !

واستأنف « عمر » حديثه فقال

« والذى نفسى بيده ، لولا أن تَنقُص حسناتى لشاركتكُم فى لين عيشكم - ولو شئتُ لكنتُ أطيبكم طعاماً ، وأرفهكم عيشاً ، ولَنحن أعلم

بطيب الطعام من كثير من آكِليه ، ولكنا ندعُه ليوم تَذهل فيه كل مرضعة عما أرضعت وتضع كل ذات حَملٍ حَملها . .وإنى لأستبق طيباتى ؛ لأنى سمعت الله تعالى يقول عن أقوام ، أذهبتُم طيِّباتكم فى حياتكم الدُّنيا واستَمْتعتم بها » . . . ! ! !

هكذا عزله حياؤه من الله عن كل ترف ، بل عن كل راحة فى الدنيا ، وأبى أن يصيب وأهلُه من الطعام إلا تقوُّتاً ، ومن العيش إلا كَفافاً . . ! ! !

* * *

فإذا جئنا موقفه من السلطان ، حيث يتنازل الناس عن أكثر أعمارهم لقاء أيام يقضونها سادة حاكمين ، فماذا نجد . . ؟ !

أما هذا السلطان ، على ضخامة ما أحرز منه « عمر » ، فما شقى بشىء مثلما شقى بأن رأى نفسه خليفة ، وأميراً ، وحاكما . . ! !

لقد كانت أغلى أمانيه أن يظل « عمر بن الخطاب » ، لا غير . . فلا هو خليفة ، ولا هو أمير .

ولقد اقتربَتْ منه الخلافة إثر وفاة رسول الله . إذ بسط إليه « أبو بكر » يمينه فى اجتماع السقيفة قائلا : هاتِ يدك يا « عمر » نبايعْ لك . . ولكن « عمر » خلص منها ناجياً ، إذ قال

« بل إياك نبايع فأنت أفضل منى » .

قال أبو بكر : « أنت أقوى منى يا عمر » .

قال « عمر » : « إن قوتى لك مع فضلك » . وسارع فمد يمينه وبايع أبا بكر ، وبايعه الناس على أثره . .

وحين كان أبو بكر يودع الدنيا ، ويعهد بالخلافة « لعمر » . كان

« عمر » يتقبل مكرهاً وكارهاً إمارة المؤمنين . ولولا أن يكون باعتذاره عنها فى هذا الظرف الحرج الدقيق هارباً من واجب سيسأله الله عنه غدا ، لرفض السلطان وهرب من الإمارة . .

« أيها الناس . . . إنى قد وليت عليكم ، ولولا رجاء أن أكون خيركم لكم ، وأقواكم عليكم ، وأشدكم اضطلاعاً بأموركم ما توليت ذلك منكم ، ولكنى عمر انتظار الحساب » . . !

انظروا . . . ولكنى « عمر » انتظار الحساب . . ! !

هذا رجل مشغول لا غير بالكلمة التى سيقولها له الله غداً وبالكلمة التى سيقولها هو لله .

والحظوظ الوافية عنده ليست فى منصب أو جاه ، إنما هى فى الظفر برضاء الله سبحانه .

وفد عليه يوماً جماعة من المسلمين النازحين . فسألهم عما صادفهم من أخبار الناس فى البلاد التى مروا بها . .

فقالوا : أما بلد « كذا » فإنهم يرهبون أمير المؤمنين ويخافون بأسه . . وأما بلد « كذا » فإنهم جمعوا أموالا كثيرة تنوء بها السفن وهم فى الطريق بها إليك . . وأما بلد « كذا » فإن بها قوماً صالحين يدعون الله لك ويقولون : « اللهم اعمر لعمر وارفع درجته » . .

فقال « عمر » ، معقباً على حديثهم هذا :

— « أما من خافنى ، فلو أريد بعمر الخير ما خيفَ منه . . وأما الأموال التى تنوء بها السفن فلبيت مال المسلمين . . ليس لعمر ولا لآل عمر فيها شىء . . وأما الدعاء الذى سمعتم بِظَهْرِ الغيب ، فذلك ما أرجوه » . . ! !

أجل ، هذا خير ما يرجو « عمر » . . مغفرة ربه ورضوانه . أما

السلطان ، وما حول السلطان من زينة وزخرف ونفوذ ؛ فتلك محنة « عمر » ، وإنه ليسأل الله أن يجتازها فى خير وعافية . . !

حين دُعى للقاء ربه ، واقتربت اللحظات التى سيودع فيها دنيا الناس ، وكانت مشغلته الكبرى آنئذ اختيار الرجل الذى يسلمه الأمانة والزمام ، اقترب منه « المغيرة بن شعبة » قائلا : أنا أدلك عليه يا أمير المؤمنين ، إنه « عبد الله بن عمر » . .

هنالك انتفض « عمر » وقال : « لا إرَبَ لنا فى أموركم ، إنى ما حَمدْتُها - يعنى الخلافة - فأرغب فيها لأحد من أهل بيتى . إن كانت خيرا فقد أصبنا منه ، وإن كانت شراً ، فَبحَسْب آل عمر أن يُحاسَب منهم رجل واحد ويُسأل عن أمر أمة محمد . . . ألاَ إنى قد جهدت نفسى وحرمت أهلى . . وإن نجوت كفافاً لا وِزْر ولا أجر إنى لسعيد » . . !

بالله ما أتقاه ، وما أنقاه ، وما أبرَّه ، وأطهره . . ! !

إنه مهموم بما سيقوله لربه غداً .

إنه يرفض كل نعيم يخشى أن يلجلج لسانه غداً بين يدى الله .

ويُجفل عن السلطان على فرط عدله وورعه وأمانته ، مخافة أن تتعثر الكلمات على لسانه غداً حين يلقى الله . !

إن الكلمة التى سيجيب بها غداً حين يسأله الكبير المتعال ، هى « البوصلة » التى تتحرك معها وعلى هداها كل ذرات كيانه وروحه .

وهو فى شدته حين يشتد ، وفى لينه حين يلين ، إنما يحركه حرصه الشديد على أن يلقى الله صادق الحجة .

يقول « لعبد الرحمن بن عوف » :

– « يا عبد الرحمن ، لقد لِنتُ للناس حتى خشيت الله فى اللين ، ثم اشتددت حتى خشيت الله فى الشدة ، وَايْمُ اللهِ لأنا أشد منهم فرقاً وخوفاً ، فأين المخرج . . . ؟ ؟ » .

يقول هذا ، وينتحب باكياً .

فيقول عبد الرحمن بن عوف ، وهو يتملىّ هذا المشهد الفريد :

« أفٌّ لهم من بَعدك » . . . !

* * *

تُرى كيف قضى الرجل العظيم تلك السنوات العشر ، والأشهر الستة ، والأيام الأربعة التى قضاها خليفة للمسلمين وأميراً للمؤمنين ؟ ؟

ترى كيف قضاها ، وأمضاها ، وعاناها تحت ضغط هذا الإحساس الراجف ، ، والقلب الواجف من خشية الله العلى الأعلى . . ؟

وهل سمع الناس فى طول دنياهم وعرضها ، بعاهلٍ استحالت كل أبهة السلطان وبذَخه أمام ناظريه إلى جمر ملتهب يتوقاه أكثر ما يكون التوقّى ، ويحاول الفرار منه لو يجد للفرار سبيلا ؟

عاهل ذلّل كل سلطانه لخشية الله ، ووفر للناس من الطمأنينة والأمن قدْرَ ما خاف هو الله . . ؟

حاكم لم تنل من سكينة نفسه مهامُّ الأمور وأخطارها ، ولا عَقد ألوية الجيوش الفاتحة وأخبارها ، ومع هذا فقد كان يزلزله زلزالا شديداً آهة مظلوم ، أو نَفثة مكروب ، أو همهمة حق ضائع يقول له صاحبه « اتق الله يا عمر » . . ! !

هل سمع الناس بمثله . . ؟ ! ومتى . . ؟

ذات يوم وهو جالس مع أصحابه اقتحم المجلس رجل مكروب تغشاه وَعثاء السفر ، وإذ يقترب من الناس ويراهم يقولون لاحدهم يا امير المؤمنين ، يتجه صوب هذا الامير ، ويقول له فى مرارة :

– « أأنت عمر ؟؟ ويل لك من الله يا عمر ! » ثم يمضى لسبيله غير وَانٍ ولا مكترث . .

ويلحق بعض الحاضرين بالرجل فى غيظ منه وحَنَق عليه ، ولكن « عمر » يناديهم ويأمرهم أن يعودوا لمجلسهم ، ويبرول هو وراء الرجل وفؤاده يرتجف .

ألم يقل له الرجل : ويل لك من الله يا « عمر » ؟؟ إنها الطَّامّة إذن ، وإنه الهول الذى لا يطيق « عمر » عليه صبرا . . !

ويدرك الرجل ثم يعود به ويسأله : « ويلي من الله لماذا ، يا أخا العرب . ؟ ؟

فيجيبه الرجل : لأنَّ عمالك وولاتك لا يعدلون ، بل يظلمون .

ويسأل « عمر » : أىّ عمالى تعنى . . ؟

يقول الرجل : عامل لك فى مصر اسمه « عياض بن غنم » .

ولا يكاد « عمر » يسمع تفاصيل الشكوى حتى يختار من أصحابه رجلين ويقول لهما : اركبا إلى مصر ، وآتيانى بعياض بن غنم . . ! !

° ° °

هذا الرجل « عمر » . .

هذا الشمخ العارم الذى يتفجر قوة وجُرأة وبأسا .

إذا أردت أن تبصره يرتجف . . كعصفور احتواه إعصار ، فليس

عليك إلا أن تقول له : ألا تتقى الله يا « عمر » . ؟ ؟

هنالك تشهد إنساناً قامت قيامته ، ويبدو كما لو كان واقفاً أمام الله . . الميزان عن يمينه ، والصراط إلى يساره،وكتابه منشور أمام عينيه ، والأفق كله يدوى فى سمعه :

« اقْرَأْ كِتَابَكَ ، كَفَى بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيباً » . . ! !

وعلى الرغم من معاناته المضنية لهذه المواقف ، فإنه كان يقرُّ بها عيناً ويطيب نفساً ، لأنها تذكّره بجلال الله وبمقامه ، ولأنها تمنحه اليقين بأنه لم يجاوز قدره أبداً كعبد لله ، وخادم للناس . . ! !

لطالما كان يدعو « أبا موسى الأشعرى » ليتلو عليه بصوته العذب المؤثر آيات من القرآن العظيم ويقول له : « ذكّرنا ربّنا ، يا أبا موسى » فيقرأ أبو موسى ، ويبكى عمر . .

وكثيرا ما كان يمسّ صبيًّا من الصبيان فى طرقات المدينة ، فيأخذ بيده ويقول له وعيناه تفيضان من الدمع : « ادع لى يا بنى ، فإنك لم تُذنب بعـد » . . ! !

وساعة كان يستقبل الموت ، يقول لابنه عبد الله :

- « يا عبد الله ، خد رأسى عن الوسادة وضعه فوق التراب ، لعلّ الله ينظر إلىَّ فيرحمنى » . . ! !

إن الميزان قد استقام فى يد « عمر » تماما حين أسلم وجهه لله وهو محسن .

وإن طبيعته الهادرة الجياشة ، وقُدراته الفائقة الغلاَّبة ، قد نهضت ثابتة الخطى فوق صراط العدل ، والفضيلة ، والواجب ، حين وثَقتْ بالله عُراها ، وأسلمتْ وراء « محمد » خطاها . .

وليس يُحاذر « عمر » على نفسه وعلى مصيره خطراً مثلما يحاذر أى انزال عن الله ، وأى انحراف عن طريق رسوله

كان قبل إسلامه يتحرى الصواب ليسير وَفقه سيرة جديرة باستعداده ، وعظمة شمائله ، وقوة روحه

أما اليوم ، فقد عرف محض الحق ومحض الصواب حين جاءهم به من عند الله رسول كريم ، لا ينطق عن الهوى

وإن « عمر » ليؤرخ ميلاده بهذا اليوم الذى صافح فيه الرسول وقال : « أشهد أن لا إله إلا الله ، وأشهد أن محمداً رسول الله » . .

فيومئذ ، بل ساعتئذ ، وجد نفسه ، والتقى بمصيره العظيم . .

وهو حين آمن بالله وبرسوله ، وبدينه ، لم يؤمن إيمان العوام ، ولا إيمان المتفعين ، ولا إيمان الهُواة . . بل آمن إيمان العارفين الأبرار .

وحين سمع لأول مرة آية الله يتلوها رسوله . . تلك الآيةالتى تقول : « أفحسبتم أنّما خلقْناكم عبثا ، وأنّكُم إلينا لا تُرجعُون » ؟ سمعها ، وكأنما يسمعها وحده ، وكأنما أنزلت إليه وحده . . وأدرك يومئذ كما أدرك قبئذ أن حياته القصيرة مهما تطل سواتها لن تغنى عنه شيئا ، وأنه بحاجة إلى ألف حياة مثلها لكى يستطيع أن يصنع صنيعاً يرضيه . . ولكى يستطيع أن يعبد ربه ويشكره

من أجل هذا ، كان شديد الخوف على اللحظة العابرة أن تضيع وعلى الكلمة العابرة أن تنحرف . . وعلى الخلجة العابرة ، أن تزِلّ . .

كان شديد الخوف على حياته السامقة أن تغيرها خطيئة ، أو تَعيبها شبهة ، لأنها لو كانت ملكا له لوجب عليه أن يرْبا بها عن كل سوء ، فكيف وهى فى تقديره ليست حياتَه ، وليست ملكه إنما هى وديعة الله

عنده . . والله صاحبها ومالكُها ولسوف يسأله عنها : « أفحسبتم أنما خلقناكم عبثاً ، وأنكم إلينا لا تُرجَعُون » . . ! !

من أجل هذا ، عاش قلقاً مؤرَّقاً . . ولكنه القلق الذكى المبتعث والأرق المفكّر الممتلئ . . .

لا ينام إلا غِبًّا . . ولا يأكل إلا تقوُّتاً . . ولا يلبس إلا خشناً . . يقظانُ دائماً . .

يقول : « إذا نمتُ الليل أضعتُ نفسى ، وإذا نمت النهار ضيعت الرَّعية » . . ! !

ويسأل كل من يلقاه فى لهفة وجد : « قل لى بربك ولا تكذِبنى كيف تجد عمر . . ؟ أتحسب الله عنى راضياً . . ؟ أترانى لم أخُنِ الله ورسوله فيكم » ؟ ؟ ! !

وإذا غشِيته من مظلة التقصير غاشية ، صاح صيحة مكظومة :

« يا ليت أم عمر ، لم تلد عمر » . . ! !

كل هذه الرجفة . . كل هذا الحياء . . كل هذا الهم الجليل ، لأنه لا يدرى :

ماذا يقول لربه غداً . . ! ! !

الفصل الثالث

ألا إنك ابن أمير المؤمنين؟!

رأيناه كيف وُهب طبيعة سوية متفوقة باهرة .

ورأيناه كيف وصل طبيعته هـذه بالله ، ووضعها فى خدمته وعنـد أمره .

وإنسان يتوافر له هذا ، لا بد أن يكون إحساسه بالمسئولية مشحوذا وعارماً

وإن عمر لذلك الإنسان .

ينفعل بالمسئولية . ويتثّل لها ، ويقبل عليها ، فى مثل عزم المرسلين . .

والمسئولية لديه لا تتجزأ ، ولا تتنوع ، ولا تتفاوت . .

ليس هناك مسئوليات صغيرة وأخرى كبيرة . . مسئوليات عادية وأخرى فوق مستوى العادة .

هناك مسئوليات وحسب . .

و « عمر » أمام هذه المسئوليات . هو ، عمر » الذى يحتشد لكل تبعة ولكل عمل ، احتشاداً لا تتفاوت درجاته . . لأنه يتصرف وفق طبيعته القوية الأمينة المؤمنة .

وطبيعته هى الأخرى لا تتجزأ ، ولا تتقسَّم . . كل عمل من أعمال « عمر » تجد فيه « عمر » كله . .

ضع عينيك على أية واقعة من وقائع حياته ، تجد فيها شمائله كلها - عدله ، ورعه ، زهده ، إيمانه ، شدته ، لينه ، عظمته ، بساطته . . ! !

وهو لا يتحمل من المسئولية القدْر الذى يخصه ، ويبرئ ذمته ، بل يحمل منها القدر الذى يتطلبه الموقف جميعه ، وتُحقق به المسئولية كل ذاتها ، ولا يسأل نفسه ساعتئذ إن كان وحده ، أم كان معه نُصَراء .

إن بين جوانحه ، وملء نفسه تفانياً رهبانيًّا ، لا يسأل عن العواقب ولا يُجرى بين يديها أى تقدير أو حساب . . ! !

* * *

لقد كان يوم أسلم ، العضو الأربعين بين رجال هذه الجماعة المؤمنة ولا يكاد يمضى على إسلامه لحظات . أجَل لحظات ، حتى ينتفض فى قلبه الشجاع إحساسه بمسئوليته عن الدين كله ، وعن هذه الجماعة المسلمة كلها ، بل وبمسئوليته عن مستقبل الدين وأهله عبْر القرون الآتية والدهور المقبلة . .

ومن ثمّ يخرج من فوره معلنا إسلامه على الصورة التى أشرنا إليها من قبل . . وهو آنئذ يدرك تماماً أنه لا يعلن إسلامه هو . . إسلام « عمر بن الخطاب » . . بل يعلن إسلام التسعة والثلاثين الذين سبقوه إلى الإسلام ، والذين يعبدون الله خُفية . . بل يعلن أيضاً إسلام مئات الملايين القادمة عبْر المستقبل . . ! !

ولا تقف مسئوليته عن هذا الدين الذى اعتنقه بإعلان إسلامه .

بل تجاوز ذلك إلى إخراج الإسلام والمسلمين من الخفاء الذى اضطرهم إليه اضطهاد قريش . .

وهكذا يذهب إلى رسول الله قائلا :

« والله يا رسول الله لن نعبُد الله سرًّا بعد اليوم » . .

وتخرج الدعوة لتواجه خصومها . وتنادى الموعودين بها . وتتلقى قريش من تكبيراتها المدوية أولى الكلمات فى منشورِ نعيها ، ونعى أصنامها . . ؟ ؟

* * *

كانت هذه أولى بركات « عمر » . .

وكان هذا نموذجاً للأسلوب الذى سيتحمل به « عمر » مسئولياته عن دين الله ، ودنيا الناس .

إنه أسلوب رجل يرى نفسه تجاه الأحداث والمواقف ، وكأنه المسئول الأوحد عنها

كل أزمة ستواجه الإسلام والمسلمين ، سيجابهها « عمر » ، بوصفه المسئول وحده عن مقارعتها وحلها .

وإيمانه بمسئوليته هذه سيدفعه إلى أن يرفض على طول الخط كل دَنيَّة فى الدين ، وكل مُلاينة لأعداء هذا الدين .

وعلى الرغم من إيمانه المطلق برسول الله ، فإن مسئوليته ستتحرك فى كل الاتجاهات حتى لو تجعله يبدو - معارضاً - للرسول الذى يقدسه ويفتديه . . ! !

فى صلح الحديبية يرى « عمر » أن المزايا التى أعطاها الرسول عليه السلام لكفار قريش سخية وكثيرة ، وهو يؤمن بضرورة مناجزتهم ودخول

مكة عليهم طوعاً منهم أو كَرهاً لهم ، ما داموا لا يريدون أن يجنحوا للسِّلْم ، ويحتكموا إلى الحق . .

وما دام الحق والباطل فى معركة ، فلابد للحق أن يَستعلِىَ ، بدل أن يُهادن . . ولابد له أن يُناجز ، بدل أن يُساير . .

هكذا فهم « عمر » المسألة ، وكوّن الرأى ، ولم يكن للجهر به من مفر . .

وهكذا أقبل على رسول الله قبل أن يبدأ الكاتب فى تحرير صحيفة المعاهدة وقال :

يا رسول الله ، ألسْنا على الحق ، وهم على الباطل . ؟

قال الرسول : بلى . .

قال عمر : أليس قتلانا فى الجنة ، وقتلاهم فى النار . . ؟

قال الرسول : بلى . .

قال عمر : فعلام نُعطى الدَّنيَّة فى ديننا ، ونرجع ولما يحكم الله بيننا وبينهم . . ؟ !

قال الرسول : ابن الخطاب . . ؟ إنى رسول الله ولن يضيعنى الله أبدا .

وترنّ عبارة « إنى رسول الله » فى رُوع « عمر » رنين الصدق ، ويستنتج من نطق الرسول بها فى هذا المقام ، أن الخُطة أكثر وأبعد من أن تكون مجرد رأى عابر لرسول الله ، فيسكت . .

ويذهب غير بعيد ، يدير خواطره على الموقف كله ، ويعود إحساسه العارم بالمسئولية فَيغالِبُه ، ويُغريه بالمعاودة ، فينطلق حثيثا إلى أبى بكر رضى الله عنه ، ويُسِرُّ فى أذنه الحديث :

يا أبا بكر ، ألسنا على الحق ، وهم على الباطل . . ؟

– بلى يا عمر . . !

– فلمادا إذن نعطى الدنية فى ديننا ، ونرجع ولما يحكم الله بيننا وبينهم . . ؟ !

ويطمئنه أبو بكر إلى أن الله لن يتخلى عن رسوله ، وأن فتح الله قريب .

ويهدأ « عمر » . . وإن كان هدوؤه هذا لم يمنعه أن يُشيّع « سهيل ابن عمرو » مندوب قريش ، بنظرات مضطرمة فاتكة . . ! !

وعندما مات عبد الله بن أبىّ بن سلول ، وكان كبير المنافقين فى المدينة ، عارض « عمر » فى إصرار ، صلاة رسول الله عليه .

ولنصغ إلى « عمر » نفسه يقص علينا النبأ .

« لما توفى عبد الله بن أبىّ ، دعى رسول الله صلى الله عليه وسلم للصلاة عليه ، فقام إليه . فلما وقف عليه يريد الصلاة تحولت حتى قمت فى صدره ، فقلت يا رسول الله ، أعلى عدو الله تصلى . . ؟ وأخذت أعدد يامه الخبيثة ورسول الله صلى الله عليه وسلم يبتسم ، حتى إذا أكثرتُ عليه ، قال : أخِّرْعنى يا عمر ، إنى خيرت فاخترت ، قد قيل لى استغفر لهم ، أو لاتستغفر لهم ، إن تستغفر لهم سبعين مرة فلن يغفر الله لهم ، فلو أعلم أنى إن زدت على السبعين غفر له ، لزدت . . ثم صلى عليه ومشى مع جنازته وقام على قبره حتى فرغ منه . .

« فعجبت لى ، ولجرأتى على رسول الله ، فوالله ما كان إلا يسيرا حتى نزلت الآية : [ولا تُصلِّ على أحدٍ مِنْهم مات أبداً ، ولا تقُمْ على قبْره] فما صلى بعدها رسول الله على منافق ، ولا قام على قبره حتى قبضه الله عز وجل . » . . . ! !

هذا المشهد يكشف عن الطريقة التي كان « عمر » يحمل بها مسئولياته في شجاعة وصدق .

فركوب مَخاطر الدنيا كلها أهون عليه من أن يقول للرسول : لا . . ولكنه إنسان لا يملك أمام مسئولياته خيارا . وما دام يرى من واجبه أن يقول : لا . . فليقلها وأمره إلى الله ، فإذا استمسك الرسول بموقفه ، يكون « عمر » قد قال كلمته . وأبرأ ذمته ، وليس أمامه بعد هذا سوى سبيل الطاعة والإيمان .

وهو في هذه الواقعة ، قدّر أن صلاة الرسول على منافق ضخم كعبد الله بن سلول ، عمل يغرى المنافقين بمزيد من اللؤم والصَّلَف ، ويُضائل من حرمة الصدق والإخلاص عند كثير أو قليل من الناس .

وإجلاله المسئولية يدعوه لإعلان هذا الرأى ، حتى في مثل هذا الموطن ، حيث وقف الرسول بالفعل ليصلى على جثمان الرجل ، فيعترضه « عمر » . ويقول : أعلَى عدو الله تصلى يا رسول الله . . ؟ !

على أنّ تناول « عمر » مسئولياته ، يبدو أروع وأبهى ما يكون عندما صار أميرا للمؤمنين . . ! !

هنا نلتقى بأعظم آيات التفوق الإنسانى . .

هنا ، نبصر نبوغ النفس ، وبطولة الروح ، وإعجاز السلوك . . ! !

هنا ، نرى مالا عين رأتْ ، ولا أذن سمعتْ ، ولا يكاد يخطر بقلب بشر . . !

أجل ، هنا العظائم تتفوق على نفسها ، ويَزْحمُ بعضها بعضا هنا « عمر » . . رضى الله عن « عمر » ! ! !

حاكم يحمل مسئوليته على بسط يده . ويعطى البشر جميعا إلى

آخر لحظة فى الأبد ، درساً فى الأمانة أىَّ درس ، وقدوة فى الدمة أى قدوة . ! !

موقفه من نفسه . . موقفه من أهله . . موقفه من الضعيف ومن القوى فى قومه وأمته . . موقفه من وُلاته . . موقفه من أموال الأمة . .

مواقفه هذه ، المترّعة بإجلال منقطع النظير لمسئوليته تجاه عمله ، وتجاه أمانة لحكم فى كل مجالى الحكم ومظاهره .

أما هو كحاكم . فقد حرم نفسه لا من الطيبات المشروعة للحاكمين فحسب . بل من الطيبات المشروعة للمواطن العادى فى كل زمان ومكان .

فعل ذلك بروح المسئولية التى حسَّتْ إليه أن يكون أول من يجوع إذا جاع قومه . . وآخر من يشبع إذا شبعوا . . والتى فرضت عليه أن يُعانى كل ما يعانيه الناس من عسر وشظف

وإنه رضى الله عنه ليصور هذا الضمير القوى فى فلسفة حكيمة فيقول :

« كيف يعنينى شأن الناس ، إذا لم يُصبنى ما يُصيبهم » ! ! . .

وهكذا رأينا أمير المؤمنين ، يلتزم أكل الزيت ، حين أصاب المسلمين أزمة شديدة فى اللحم والسمن ، ويُدمن ابن الخطاب أكل الزيت حتى تئن أمعاؤه وتُقرقر ، فيضع كفه على بطنه ، ويقول :

أيها البطن لتمرَنَّ على الزيت ، ما دام السمن يباع بالأواقى . . ! !

وفى عام الرمادة ، وكان عام مجاعة قاتلة فى المدينة ، أمر يوماً بنحر جَزور ، وتوزيع لحمه على أهل المدينة . .

وقام المختصون بإنجاز المهمة ، بيد أنهم استقوا لأمير المؤمنين ، أطيب أجزاء الذبيحة . .

وعند العداء ، وجد « عمر » أمامه على المائدة سنام الجزور وكبده ، وهما أطيب ما فيه . . ! فقال :

– من أين هذا . . ؟

قيل : من الجزور الذى ذبح اليوم . .

فقال ، وهو يزيح المائدة بيده الأمينة :

– نَحِّ نَحِّ ، بئس الوالى أنا ، إن طعمتُ طيبها ، وتركت للناس كَراديسها – يعنى عظامها – » . .

ثم نادى خادمه أسلم ، وقال له :

– يا أسلم ، ارفع هذه الجفْنة . وائتنى بخبز وزيت . . ! !

إن قوله : « بئس الوالى أنا ، إن طعمت طيبها » يرسم الصورة الكاملة المضيئة لروح المسئولية التى كانت تسيطر على تصرفات ذلك العاهل المتقطع النظير .

إنه رجل يرى نفسه واحداً من الناس آثره الله عليهم بمزيد من التبعة والواجب حين ولاه أمرهم . واستخلفه عليهم . ولم يُؤثره بامتياز يجعل الحكم كَلأً مباحاً ، وقَنَصاً بَواحاً . . ! ! !

على أن « عمر » وهو أمير المؤمنين ، يبدل من الجهد ، ما يشفع له إن هو امْتارَ لنفسه طعمة طيبة تُعينه وتقوّيه . .

هذا منطقنا ، وهو منطق عادل فى رأينا . .

أما « عمر » ، فصاحب منطق آخر . . وهو يعرف العدل فى ذُراه العالية التى تتقطع الأنفس دون بلوغها . . ! !

هو يدرك أن مسئوليته تقتضيه أن يوفر للناس عيشهم ، فإذا قعدت به دون هذا ظروف لا يملك لها دفعاً ، تكون مسئوليته أن يُسوِّى بينهم بالحق .

وأن يكون هو أول من يحمل حظه من الخصاصة والضنك . .

ذات يوم يتلقى من أحد ولاته هدية من الحلوى ، ولا تكاد توضع بين يديه حتى يسأل الرسول الذى جاء يحملها :

– ما هذا . . ؟

قال : حلوى يصنعها أهل أذربيجان ، وقد أرسلنى بها إليك عتبة ابن فرقد ، وكان واليا على أذربيجان – فذاقها « عمر » ، فوجد لها مذاقا شهيا . .

فعاد يسأل الرسول :

– أكل المسلمين هناك يطعمون هذا . . . ؟

قال الرجل : لا . . وإنما هو طعام الخاصة . .

فأعاد « عمر » إغلاق الوعاء جيدا ، وقال للرجل :

أين بعيرك . ؟ خذ جملك هذا ، وارجع به لعتبة ، وقل له : « عمر » يقول لك . اتق الله . وأشبع المسلمين مما تشبع منه . . ! !

هذا حاكم لا تلقاه فى مكان الصدارة ، ولا فى مقدمة الموكب إلا حين تكون المخاطر داهمة . . أما دون هذا ، فقد اختار مكانه دوما هناك . . آخر مقعد . . فى آخر صف . . ليحرس القافلة ، وليتأكد إذا كان ثمت نعمة مقبلة ، أنها لم تبلغه إلا بعد أن تكون قد مرت بالناس جميعا . ! ! !

* * *

فإذا حشا موقفه من أهله وأسرته ، وحدنا تقديسا للمسئولية لا يضاهيه تقديس ، وإكبارا لأمانة الحكم . لا يضاهيه إكبار

إنه لا يحرمهم مما ليس لهم بحق فحسب . بل مما حرمهم حق مشروع .

وإنه ليحمّلهم من المسئوليات أضعاف ما يَحمله نظراؤهم من الناس ، حتى صارت قرابة « عمر » عِبئاً يود الأقرباء لو استطاعوا منه الفرار . . ! :

إن أمير المؤمنين يعلم أن أمانة الحكم لا تُمتحن امتحانها الوثيق إلا هنا . . في علاقات الحاكم بأهله ، هل لهم قانون ، وللناس قانون ؟ أم أنهم والناسَ سَواسيةٌ أمام قانون واحد ، وعدالة واحدة ؟ ؟

من أجل هذا بالغ في إلزامهم جميعا مسئولية القدوة

ولطالما حملهم على شظف العيش ، ولأواء الحياة . . لطالما انتزع من أيديهم ، بل من أفواههم اللقمة الطرية . . ! !

ولقد كانت الأرض تَميد ، والسماء تَمُور ، حين يعلم أن أحداً من أسرته ذهب بامتياز أيّ امتياز . . !

وكان إذا سَنَّ قانوناً ، أو حظَر أمراً ، جمع أهله أوّلا . وقال لهم :

— « إني قد نهيت الناس عن كذا ، وكذا . وإن الناس ينظرون إليكم كما ينظر الطير إلى اللحم ، فإن وقَعتم وقعوا . وإن هِبتم هابوا . وإني والله لا أوتى برجل منكم وقع فيما نهيت الناس عنه إلا ضاعفت له العذاب لمكانه مني . . فمن شاء منكم فليتقدم ، ومن شاء فليتأخر » ! !

أرأيتم . . ؟ ؟

« ضاعفتُ له العذاب لمكانه مني » . .

إن القربَى من عمر ، لاتعنى أن العدل في إجازة . . ولاتعنى أن القانون لغو . .بل تعنى أضعافاً مضاعفة من التبعة والمسئولية والحرمان . . تعنى البعد من كل شبهة . والتخلى عن كل متعة . تعنى أن يتقدم هؤلاء الأقرباء عند الخطر ، ويتأخرون عند المغنم ، بل هى كذلك تعنى عند « عمر » حرمانهم من حق مكتسب ، تفادياً لشبهة محتملة . . ! !

ولو رأيناه وهو يعاتب ولده « عبدالله بن عمر » لرأينا عجباً .

مع أن عبدالله رضى الله عنه كان إماماً فى الورع والزهد والتُّقى . . .

كان يتبع خطى أبيه ، ولم تكن نفسه لتزين له شبهة من سوء .

ومع هذا ، فما كاد « عمر » يراه يسترُوح نعمة متواضعة من نعم الحياة الدنيا ، إلا قال له :

- « ألأنك ابن أمير المؤمنين » . . ! ؟

وكانت هذه العبارة : « ألأنك ابن أمير المؤمنين » تمثل الشعار الحىّ الذى رفعه « عمر » لأهله خاصة ، وللناس كافة تجاه الحق والمعدلة .

يدخل يوماً دار ابنه عبد الله . فيجده يأكل شرائح لحم ، فيغضب ويقول له :

- « ألأنك ابنُ أمير المؤمنين تأكل لحما ، والناس فى خَصاصة . . ؟ ألا خبزاً وملحاً . ؟ ألا خبزاً وزيتاً » . . ؟ ! !

ويخرج إلى السوق يوماً فى جولة تفتيشية ، فيرى إبلا سِماناً ، تمتاز عن بقية الإبل بنموها وامتلائها ، فيسأل :

إبلُ مَن هذه . . ؟ ؟

قالوا : إبل عبد الله بن عمر . .

وانتفض أمير المؤمنين ؟ كأنما القيامة قامت ، وقال :

- عبد الله بن عمر . . . ؟ ؟ بخٍ بَخٍ يَا ابن أمير المؤمنين ! !

وأرسل فى طلبه من فوره ، وأقبل عبد الله يسعى . . وحين وقف بين يدى والده ، أخذ « عمر » يفتل سَبلة شاربه - وتلك كانت عادته إذا أهمَّه أمر خطير - وقال لابنه :

- ما هذه الإبل يا عبد الله . ؟ ؟

فأجاب : إنها إبل أنضاء أى هزيلة اشتريتها بمالى ، وبعثت بها الى الحمى أى المرعى - أتاجر فيها ، وأبتغى ما يبتغى المسلمون .

فعقّب « عمر » فى تهكّم لاذع :

ويقول الناس حين يرونها .. ارعوا إبل ابن أمير المؤمنين .. اسقُوا إبلَ ابن أمير المؤمنين .. وهكذا تسْمنُ إبلُك ، ويَربُو ربحُك يا ابن أمير المؤمنين » .. !!

ثم صاح به :

[يا عبد الله بن عمر ، خذ رأس مالك الذى دفعته فى هذه الإبل ، واجعل الربح فى بيت مال المسلمين] ..

يا خالق هذا الإنسان ، سبحانك .. !!!

إن عبد الله بن عمر ، لم يأت أمراً نُكْراً ، إنما ينتمر ماله الحلال فى تجارة حلال ، وهو بدينه القوى وأخلاقه الأمينة فوق كل شبهة .

ولكن لأنه ابن أمير المؤمنين ، يحرمه أمير المؤمنين ، مما هو له حق مظنة أن تكون بُنوّته لعمر ، قد هيأت له من الفرص مالا يتوافر لغيره من الناس .. !!

هذا حاكم يمسك الميزان فى رهبة لا تماثلها رهبة ، وهو لا يدرأ أهله عن أن يكونوا أهل حظوظ ومزايا فحسب .. بل إنه ليضطرهم إلى أن يعيشوا معه فوق صراط أحدّ من الشعرة .. وأرق من الشعرة ، حتى لكأنما رُبُوا بقرابة « عمر » ، بدل أن يهنأوا بها ويتدلحوا فيها !

يصل إلى المدينة يوما بعض أموال الأقاليم ، فتذهب إليه ابنته ، حفصة ، رضى الله عنها ، لتأخذ نصيبها . وتقول له مداعبة :

– « يا أمير المؤمنين ، حق أقاربك فى هذا المال ، فقد أوصى الله بالأقربين » . .

فيجيبها حادًا :

– « يا بُنية ، حق أقربائى فى مالى . . أما هذا ، فمال المسلمين . . قومى إلى بيتك » . . ! !

هذا رجل تأدب على يد « محمد » رسول الله عليه الصلاة والسلام .

ولطالما رآه يقول لأحب الناس إليه ، ابنته « فاطمة البتول » : « لا يا فاطمة . . إن فى المسلمين من هم أحوج منك لهذا المال » . .

ثم يحرمها ويعطى سواها ! !

من هذا المنهل ارتوى « عمر » ، وعلى هذ الهدى سار . .

وهو يطالب أهله ودويه أن يرتفعوا دوماً إلى مستوى المسئولية لا الحظوة .

فليس لدى « عمر » حُظوة لإنسان . .

هو يريدمنهم أن يكونوا عوناً له على واجبه ، وذلك يقتضيهم ان يبذلوا جهداً أكثر ، ويحرزوا تفوقاً أكبر .

يقتضيهم أن يعطوا كثيراً ، ويأخذوا قليلا ، وينتظروا من الله حُسن الثواب . .

أجل . . يقتضيهم أن يكونوا قدوة لأهل العفاف والكفاف .

حين أفاء الله على المسلمين فى عهده خيراً كثيراً ، وامتلأ بيت المال بالمال ، أشار عليه نفر من صحبه ، أن يقوم بإحصاء الناس ، ورصْد أسمائهم فى ديوان ، حتى ينالوا جميعاً رواتبهم السنوية فى نظام محكم .

وختير لهذه المهمة – عقيل بن أبى طالب ، وجبير بن مطعم ، ومخرمة ابن نوفل – وكانوا أعلم الناس بأنساب قريش ، وأكثرهم معرفة بالمسلمين .

جلسوا يدونون الأسماء ، بادئين ببنى هاشم ، ثم بآل أبى بكر ثم بنى عَدِىّ آل عمر . . .

فلما طالع أمير المؤمنين الكتاب رده إليهم وأمرهم أن يقدموا على آل عمر كثيرين غيرهم اقترح أسماءهم ، وذكر عائلاتهم . . وقال : « ضعوا عمر وقومه موضعهم . . ! !

وعلم « بنو عدى » بهذا ، فذهبوا إليه راجين أن تظل أسماؤهم فى مقدمة الديوان كى ينالوا أنصباءهم والمال وَفْر ، وقالوا له : ألسنا أهل أمير المؤمنين . . ؟

فأجابهم عمر :

- « بخ بخ بنى عدى ، أردتم الأكل على ظهرى ، وأن أهب حسناتى لكم ، لا والله لتأخذُنَّ مكانكم ولو جئتم آخر الناس » . .

إن القرابة من أمير المؤمنين ، لا تعنى كما أسلفت الأثرة والحظوة إنما تعنى العرق والشظف . .

ولقد رفض أمير المؤمنين إلحاح أصحابه وإخوانه لكى يُولى ابنه عبد الله منصبا من مناصب الدولة . .

ولقد كانوا فى إلحاحهم مدفوعين بحرصهم الشديد على لانتفاع بمواهبه النادرة . .

ولكن « عمر » رفض كما رفض عند موته أن يرشحه للخلافة . .

بل رفض أن يجعله ضمن الستة الذين رشحهم هو ليختاروا من بينهم خليفة قائلا : حَسْبُ آل عمر أن يحاسب منهم واحد ، هو عمر » . . ! !

لكنْ يا أمير المؤمنين ، إن ولدك عبد الله هو التقى العادل ، فهل ذنبه ، وذنب الناس الذين ستسعدهم ولايته أنه ابن أمير المؤمنين . . ؟ !

طالما قيل هذا القول لعمر . . فيذكّر قائليه بأن عبد الله ليس هو التقى

العادل وحده . . وهناك فى المسلمين نُظَراء له فى العدل والتقوى ، فإذا آثره « عمر » عليهم يكون قد حابَى وجامل . . !

ثم إن « عمر » رجل « قدوة » ، قبل أن يكون رجل « حكم » ؛ فإذا استعمل اليوم صالحى أهله . فأيان يذهب إذا جاء من بعده حكام يُسرفون فى تولية أهليهم . ويقولون : لقد فعل هذا « عمر » . . ؟ !

من أجل ذلك وضع مبدأ جليلا فقال :

– « من استعمل رجلا لمودة أو قرابة ، لا يحمله على استعماله إلا ذلك . فقد خان الله ورسوله والمؤمنين » .

إنه إذا ولىَّ عبد الله ابنه عملا ، لن يفعل ، لمكان عبد الله منه ؛ بل لمحض استحقاقه وكفايته . ومع هذا يصر على موقفه . .

جلس يوماً بين أصحابه وقال :

– « أعيانى أهل الكوفة . . إن استعملت عليهم ليِّناً استضعفوه وإن وليتهم القوى شكَوْه ، ولوددْتُ أنى وجدت قويًّا أمينا مسلما ، أستعمله عليهم » .

فقال أحد جلسائه : أنا والله أدلك على القوى الأمين المسلم . .

قال عمر متحفزاً : من هو . . ؟

قال الرجل : عبد الله بن عمر .

فأجاب أمير المؤمنين قائلا : قاتلك الله . والله ما أردتَ الله بهذا . . . ثم اختار واليا آخر . . ! !

* * *

لقد اعتدنا أن نضع هذا السلوك المعجز لعمر . تحت عنوان الزهد

أو التقشف . . .

فعمر يجوع . ويتقشف فى مطعمه ، وملبسه ، ويحمل أهله معه على ذلك بدافع ، تسميه زهدا . .

ولكن الحق . أن وراء الزهد ، حافزا أبعد غوراً وأعمق جذوراً .

ذلك هو الاحترام الفريد لمسئوليته ، والتفانى الفذّ فى لإخلاص لتبعاته وواجبه .

إن للمسئولية فى ضميره الطاهر الحىّ . قداسة مطلقة ، وجميع الاعتبارات والمواقف ، تتكيف وفق مقتضيات هذه المسئولية . ولا تخضع هى لأى موقف أو اعتبار .

ولعلّ من حظوظنا الوافية أن نطالع هذه الخطبة القيمة التى استهلّ بها عهد خلافته :

« . . بلغنى أن الناس هابوا شدتى ، وخافوا غلظتى ، وقالوا : قد كان عمر يشتد ورسول الله بين اظهرنا ، ثم اشتد علينا ، وأبو بكر ولين دُونه ، فكيف وقد صارت الأمور إليه . . ؟

« ألا من قال هذا فقد صدق . فإنى كنت مع رسول الله عونه وخادمه . وكان عليه السلام من لا يبلغ أحد صفته من اللين والرحمة ، وكان كما قال الله تعالى [بالمؤمنين رءوفٌ رحيمٌ] فكنت بين يديه سيفا مسلولا حتى يُعمدنى ، أو يدعنى فأمضى . فلم أزل مع رسول الله صلى الله عليه وسلم على ذلك حتى توفاه الله وهو عنى راض . والحمد لله على ذلك كثيراً . وانا به أسعد . .

« ثم ولىّ أمر المسلمين أبو بكر ، فكان من لا تنكرون دَعَته ، وكرمه ، ولينه ، فكنت خادمه وعونه . أخلط شدتى بلينه فأكون سيفاً مسلولا حتى يعمدنى فأمضى . فلم أزل معه كذلك حتى قبضه الله عز وجل وهو عنى

راض ، والحمد لله على ذلك كثيراً . وأنا به أسعد . .

« ثم إنى قد وليت أموركم أيها الناس ، فاعلموا أن تلك الشدة قد أضعفتْ ، ولكنها إنما تكون على أهل الظلم والتعدى ، فأما أهل السلامة والدين والقصد فأنا ألينُ لهم من بعضهم لبعض . ولستُ أدع أحدا يظلم أحدا . أو يعتدى عليه حتى أضع خده على الأرض ، حتى يُذعن للحق ، وإنى بعد شدتى تلك ، أضع خدى على الأرض لأهل العفاف ، وأهل الكفاف . .

« ولكم على أيها الناس خصال أذكرها لكم فخذونى بها :

لكُم على ألا أجتبى شيئاً من خراجكم ولا فَىء الله عليكم إلا من وجهه ، ولكم علىّ إذا وقع فى يدى ، ألا يخرج منى إلا فى حقه ، ولكم على أن أزيد عطياكم وأرزاقكم إن شاء الله تعالى ، وأسد ثغوركم ، ولكم علىّ ألا ألقيكم فى المهالك . وإذا غبتم فى البعوث فأنا أبو العيال حتى ترجعوا إليهم . . .

« واتقوا الله وأعينونى على أنفسكم بكفّها عنى ، وأعينونى على نفسى بالأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، وإحضارى النصيحة فيما ولانى الله من أمركم . . ! !

* * *

هذه الخطبة ، ليست أجمع خطب « عمر » . ولا أكثرها ألقاً ونوراً ولكنها فى هذا المقام تلقى ضياء غامراً على الحافز العميق الذى كان يحرك الرجل الكبير ويهدى خطاه . .

فلقد كان ورسولُ الله حىّ ، سيفا مسلولا على كل ما هو زيف وباطل ،

يضرب به الرسول ما يشاء . .

وكان وأبو بكر حي ، السيف المسلول نفسَه فى يد خليفة رسول الله . . أى أنه كان جنديًا ، قد يناقش قائده ، ولكنه آخر الأمر السميع المطيع .

أما اليوم ، فقد صار السيفَ والضاربَ معاً . . الجندى ، والقائد جميعاً . . ومسئوليته عن كل شيء مسئولية مباشرة . .

وهو لا يعد نفسه مسئولا أمام الناس ، ولا أمام التاريخ . ولا أمام شيء من هذه المصطلحات . بل هو مسئول أمام الحق المبين - الله الذى لا تخفى عليه خافية . . ! !

أجل - أمام الله العلى الكبير يحمل « عمر » المسئولية التى كان يحملها صاحباه - رسول الله ، وخليفته أبو بكر . .

* * *

وإذا كنا رأينا كيف تفوَّق بمسئولياته على كل خوالج النفس ، ورغبات الأهل . .

فلننظر الآن كيف باشَر مسئوليته تجاه الناس الذين استخلفه الله عليهم .

وهنا نلتقى مثلما التقينا من قبل ، وكما سنلتقى من بعد بالرجل الذى هو نسيجُ وحدِه . .

إنه يرى مسئوليته مباشِرة عن كل رجل فى سِرْبه . . عن كل امرأة فى بيتها . . عن كل رضيع فى مهده . . ! !

وهو يبدأ مسئوليته تجاه الناس ، بأن يعيش فى أدنى مستويات عيشهم . فإذا دُسَّت عليه لقمة متميزة قال كما قرأنا من قبل : « بئس الوالى إن

أنا طعمت طيبها ، وتركت للناس عظامها » . !

وأعجبُ من كل عجب ، أنه لم يسلك سلوكه هذا تجاه الأحياء وحدهم ، بل تجاه الأموات أيضاً . . ! !

فكان يرفض أن يظفر بنعيم لم يظفر به إخوانه الذين سبقوه إلى الله ، واستشهدوا فى سبيله قبل أن يمكّن للإسلام والمسلمين . .

حين زار الشام ، جيء له بطعام طيب ، مختلف ألوانه ، وبدلا من أن يقبل عليه ، وينعم بمذاقه ، رمَقه بعينين باكيتين وقال :

– « كُلٌّ هذا لنا ، وقد مات إخواننا فقراء لا يشبعون من خبز الشعير » ؟ ؟ ! !

وهو يأخذ بمَكاظِم الجبارين العتاة حتى يخضعوا للحق . ويُوطّئوا الأكناف لإخوانهم الذين يتميزون عليهم .

وفى الوقت نفسه يضع خده هو على الأرض – كما سمعناه يخطب من قبل – لأهل العفاف وأهل الكفاف . .

وهو يحمل مسئولياته فوق كاهله . . ، ولا يوزعها على الآخرين الذين هم بمسئولياتهم مشغولون . .

فإذا تقدم منه أحد أصحابه ليريحه من عمل ، أو يشاركه فيه ، نَهرَه قائلا : « أتحمل وزرى يوم القيامة » . . ؟ ! .

وحين نبصر الجوَّ النفسى المشحون بالاهتمام والحركة عندما تنادى « عمر » إحدى مسئولياته ، نرى عالماً يموج ويتحرك ، وليس فرداً مجرد فرد . .

والحدَث العابر الذى لا يكاد يحسه أكثر الناس يقظة وتحفزاً وإنسانية . . كان « عمر » يرتجف منه ، ويحتشد له ، ويقيس عليه الأشباه

والنطائر ثم يضع تشريعاً ، ويسن قانوناً . .

قدم المدينة بعض التجار فى إحدى الأمسيات ، وخيَّموا عند مشارفها ، فاصطحب أمير المؤمنين عبد الرحمن بن عوف ليتفقد أمر القافلة ، وكان الليل قد تصرَّم ، واقترب الهزيع الأخير منه . . وعند القافلة النائمة اتخذ « عمر » وصاحبه مجلساً على مقربة منها ، وقال « عمر » لعبد الرحمن : فلنمض بقية الليل هنا ، نحرس ضيوفنا . .

وإذْ هما جالسان ، سمع صوت بكاء صبى ، فانتبه « عمر » وصمت . . وانتظر أن يكفَّ الصبى عن بكائه ، ولكنه تمادى فيه ، فمضى بسرع صوبه ، وحين اقترب منه وسمع أمه تُنَهْنِهُه ، قال لها : اتق الله ، وأحسنى إلى صبيك . . ! !

ثم عاد إلى مكانه . . وبعد حين عاود الصبى البكاء فهرول نحوه « عمر » ، ونادى أمه . قلت لك ، اتق الله أحسنى إلى صَبيِّك . .

وعاد إلى مجلسه . يبد أنه لم يكد يستقر حتى زلزله مرة أخرى بكاء الصبى فذهب إلى أمه وقال لها : ويحك . . إنى لأراك أُمَّ سوء . ما لِصَبيك لا يقر له قرار . . ؟ !

قالت ، وهى لا تعرف من تخاطب : يا عبد الله قد أضجرتنى . .

إنى أحمله على الفِطام فيأبى . .

سألها عمر ولم تحمليه على الفطام . . ؟

قالت : لأن عمر لا يفرض إلا للفطيم . .

قال وأنفاسه تتواثب : وكم له من العمر . . ؟

قالت : بضعة أشهر .

قال : ويحك . . لا تُعجليه .

يقول صاحبه عبد الرحمن بن عوف : فصلّى بنا الفجر يومئذ ، وما يَستبين الناس قراءته من علة البكاء . فلما سلّم قال : « يابؤسا لعمر ! ! كم قتل من أولاد المسلمين » . . ؟ ! !

ثم أمر مناديا ينادى فى المدينة : « لا تعجلوا صبيانكم عن الفطام ، فإنا نفرض من بيت المال لكل مولود فى الإسلام » . .

ثم كتب بهذا إلى جميع ولاته فى الأمطار .

* * *

أمير للمؤمنين ، تلك جيوشه معاقل كسرى وقيصر . وهو هنا فى الساعات الأخيرة من الليل يحرس قافلة وفدت على المدينة . . ثم يؤرقه بكاء طفل ويزلزله ، حتى يَشْرق بالدموع وهو يصلى بالناس ، ثم لا يعالج واقعة الحال هذه وحدها . بل يضع فى التو واللحظة قانونا يستوعب كل حالاتها المشابهة . .

اهتمام عجيب بمشاكل الناس . وممارسة فذة خارقة لمسئولية الحكم . . !

وفى عام الرمادة يسمع عن جماعة فى أقصى المدينة ، قد نزل بهم من الضر أكثر مما نزل بأهل المدينة كلها . . فيحمل فوق ظهره جرابين من دقيق ، ويحمل خادمه « أسلم » قربة مملوءة زيتا ، ثم يهرولان إلى هناك يحملان النجدة والغوث .

وعندما يبلغان القوم ، يطرح أمير المؤمنين بردائه ويطهو بنفسه طعامهم حتى يشبعوا . . ثم يرسل خادمه ليعود إليه بإبل يحملهم على ظهورها إلى داخل المدينة حتى يكونوا بقرب منه ، وحتى ينزلوا مكانا أطيب ، وينالوا رعاية أكثر . .

الناس . . الناس . . الناس . . ! ! !

هذه الكلمة كانت الهتاف العلوى الذى يجلجل فى روع عمر آناء الليل وأطراف النهار .

حتى لتَراه وهو يجود بأنفاسه الطاهرة ، وجِراحُه السبيلة الشهيدة تَشْخَبُ دماً ، لا يشغله إلا أمر الناس . .

فيدعو بالستة الذين اختارهم . ليختاروا من بينهم الخليفة الجديد وإذ يحضر منهم على ، وعثمان ، وسعد ، يوصيهم وهو لا يقوَى على الكلام فيقول :

- « يا على . . إذا وليت من أمور الناس شيئاً ، فأعيذك بالله أن تحمل بنى هاشم على رقاب الناس . . ! »

« يا عثمان . . إذا وليت من أمور الناس شيئاً ، فأعيذك بالله أن تحمل بنى أبى مُعَيط على رقاب الناس . . ! »

- « يا سعد . إذا وليت من أمور الناس شيئاً . فأعيذك بالله أن تحمل أقاربك على رقاب الناس . . ! »

وفى العام الذى لقى الله فيه ، كان على موعد مع نفسه أن يطوف بجميع الأمصار ليتفقد أحوال الناس ويبلوَ أخبارهم . ولقد قال يوماً لأصحابه :

« لئن عشت إن شاء الله ، لأسيرنَّ فى الرعية حوْلا ، فإنى أعلم أن للناس حوائج تقطع دونى . . أمَا وُلاتهم فلا يرفعونها إلى . وأمَا هم فلا يصلون إلى . . أسير إلى الشام فأقيم شهرين ، وبالجزيرة شهرين ، وبمصر شهرين ، وبالبحرين شهرين ، وبالكوفة شهرين ، وبالبصرة شهرين . . ولله لَنعم الحول هذا » . . ! !

* * *

وتنقلنا مسئولية « عمر » عن الناس إلى مسئوليته عن الولاة والعمال الذين كان يكِل إليهم مصاير الناس فى البلاد البعيدة والقريبة . .

فكيف كان « عمر » يباشر مسئوليته تجاه وُلاته ومعاونيه فى الحكم ؟ ؟

كان يباشرها على طريقته . . طريقته التى لا تتغير ، والتى لا نرى فى نماذجها مهما تتكاثر أدنى تفاوت . .

وكان يختارهم فى حرص من يختار مصيره . . ! !

إنه يعد نفسه مسئولا عن كل غلطة يرتكبها أحد ولاته ، علم بها عمر أم لم يعلم . .

ومن ثم ، فهو يقلب وجهه ، ويُعمل فكره ، ويَستخير ربه ، ويَستشير صحبه ، ويَستأنى ثم يستأنى قبل أن يختار عامله ومعاونه . . ! !

كان يقول لأصحابه :

« أرأيتم إذا استعملت عليكم خير من أعلم ، ثم أمرته بالعدل أيرئ ذلك ذمتى » . . . ؟ ؟

يقول أصحابه : نعم . .

فيقول : « كلا . . حتى أنظر فى عمله ، أعَمِل بما أمرته أم لا » .

ويقول : « أيما عامل لى ظلم أحداً ، وبلغتنى مظلمته فلم أغيرها . فأنا ظلمته » . . ! !

ويقول لخالد بن عرفطة :

- « إن نصيحتى لك وأنت عندى جالس ، كنصيحتى لمن هو بأقصى ثغر من ثغور المسلمين . وذلك لِمَا طوَّقنى الله من أمرهم ، فإن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « من مات غاشاً لرعيته لم يُرَحْ رائحة الجنة » . . ! !

إن « عمر » يريد من ولاته أن يباشروا مسئولياتهم على المستوى نفسه

الذى يباشر فيه مسئولياته . .

وإذا كان ذلك عسيراً . . بل مستحيلا ، لأن « عمر » لا يتكرر ، فقد كان يبحث عن أقرب الناس مسافة من هذا المستوى . .

وهو لهذا ، يختارهم مُعنًى فى التحوط والدقة واليقظة . .

فهو أولا يرفض كل من يسعى إلى المنصب أو يطلبه لنفسه .

وإنه فى هذ لمقتد برسول الله عليه الصلاة والسلام ، إذ كان يقول : « إنا والله لا نُولِّى هذا الأمر أحداً يسأله أو يحرص عليه » .

هذه أولى خطوات « عمر » فى اختيار معاونيه . استبعاد كل راغب فى المنصب ، طامح إليه ، لأن الذى يحمل شهوة الحكم يحمل شهوة التحكُّم . . والذين يطلبون أن يكونوا حكاماً وولاة ، لا يقدرون مسئولية الحكم تماماً ، وإلا لهربوا منه ، وزهدوا فيه . .

ذات يوم أسرَّ فى نفسه اختيار أحد أصحابه ليجعله والياً على أحد الأقاليم .

ولو صبر هذا الصحابى بضع ساعات ، لا استدعاه عمر ، ليقلده المنصب الذى رشحه له .

ولكن الحاكم بادر الأمور التى لم يكن يعرف عنها شيئاً ، وذهب إلى أمير المؤمنين يسأله أن يوليه إمرة . .

ويبتسم « عمر » لحكمة المقادير ، ويفكر قليلا ثم يقول لصاحبه : « قد كنا أردناك لذلك ، ولكن من يطلب هذا الأمر لا يُعان عليه ولا يُجاب إليه » . . ثم صرفه وولى غيره . . ! !

سنقول لأنفسنا . وأى بأس فى أن يطلب رجل لنفسه الحق فى عمل يثق من قدرته على مسئوليته ، وحفظ أمانته ؟ ؟

ألم يقل يوسف الصديق للملك : « اجْعَلْنِي على خزائنِ الأرْضِ ، إنِّي حفيظٌ عليمٌ » . . ؟ ؟

أجل ، قال يوسف الصديق هذا ، بيد أنه حين تقدم طالباً ذلك المنصب ، كان تماما كفدائى يخاطر بحياته . . كان كجندى الإطفاء يُلقى بنفسه فى أفواه اللهب ، وهو لا يدرى : أيعود مُعافى ، أم يتحول هناك إلى رماد . . ؟ !

صحيح أنه طالب بمنصب رفيع ، بيد أن هذا المنصب ساعتئذ كان غُرماً لا غنما ، وكانت مخاطره المحققة ، تفوق كثيراً مباهجه المحتملة . .

كان هناك إفلاس ، ومجاعة ، وخراب ، وكل المسئولين يهربون مما جنتْ أيديهم ، ثم يتقدم رجل ليقذ أزمة تستعصى على الإنقاذ .

هذا ليس طالب منصب ، بل عاشق الخطر ، وراكب الصعب . . ! !

على أن « عمر » ، لم يكن بحاجة إلى أن يفلسف المسألة على هذا النسق . . فالأمر لديه فى غاية الوضوح . . إنه يريد واليا يرتفع إلى مستوى المسئولية كما يفهمها عمر . وأى واحد من هذا الطراز ، سيهرب من الولايه بدل أن يحرص عليها أو يطلبها .

لقد هرب « عمر » مما هو أكثر من الولاية . . هرب من الخلافة إثر وفاة رسول الله . . ولولا أن طوّقه بها « أبو بكر » فى لحظة لا تسمح بالتردد ، بل ولا بالتفكير ، لهرب منها أيضاً ولآثر كما قال . « أن يُضرب عنقه ولا يرى نفسه أميرا للمؤمنين » . . ! !

إن كل من يطلب الإمارة إذن ، يكون سيئ التقدير لتبعاتها ، وعُقْباها ، ومن ثم لا يراه « عمر » جديراً بها . .

هذا أول ما يتطلبه من ولاته . الزهد فى المنصب ، والفرار منه ، حتى

إذا جاءهم كَرها ، أخذوه مشفقين . . ! !

بعد هذا ، يختار لها « القويَّ الأمين » . .

ولا يكاد يختار الوالى حتى يأخذ بيده ويقول له :

– « إنى لم أستعملك على دماء المسلمين ، ولا على أعراضهم . ولكنى استعملتك لتقيم فيهم الصلاة ، وتَقسِم بينهم ، وتحكم فيهم بالعدل » .

ثم يعدّ له عدًّا ، النواهى التى عليه أن يتجنبها :

• لا تركب دابة مُطَهَّمة . .

• لا تلبس ثوباً رقيقاً . .

• لا تأكل طعاماً رافهاً . .

• لا تغلق بابك دون حوائج الناس . .

ولكن ، لماذا يحول « عمر » بين عماله ، وهذه الطيبات المباحة – الدابة المطهمة . . والثوب الرقيق . . واللقمة الطرية . . ؟ !

إنه يفعل ليعيشوا دائما فى مستوى الشعب الكادح الفقير . .وليظلُّوا فى مكانهم الحق ، خداماً للناس ، لا سادة لهم . .

إنه لا يريد لِوُلاَتِه أن يُفتنوا ، أو يترفوا ، أو ينالوا باسم الحكم أى بُلَهْنِية ، أو امتياز .

من أجل هذا ، يتعقبهم فى كل مظاهر الزينة . والعلو ، فيذودهم عنها حتى لو يكون هذا المظهر دابة الركوب . .

يجب أن تكون هذه الدابة للعمل ، لا للخُيَلاء . . للخدمة لا للزَّهْو . . للضرورة ، لا للصلف ولا للترف . . ! !

إنه لا يريد لولاته أن يفقدوا وَجاهتهم . . ولكنه يريد لهم الوجاهة المشروعة التى لا بَغى فيها ولا غرور . .

يريد أن يتفوقوا على الناس بأناقة النفس ، لا بأناقة اللباس ، وبمحامد الأفعال ، لا بالمظاهر الكاذبة ، والغبار الباطل . . ! ! !

انظروا كيف يرسم فى حِذق باهر ، صورة الأمير الذى يُحِب ، والحاكم الذى يُؤثِر . .

ذات يوم قال لإخوانه : . . « دُلونى على رجل أُكِلُ إليه أمراً يهمنى . . قالوا : فلان . قال : لا حاجة لنا فيه . . قالوا : فمن تريد ؟

قال : « أريد رجلا إذا كان فى القوم وليس أميراً لهم ، بدا ، وكأنَّهُ أميرهم . . وإذا كان فيهم وهو أميرهم . بدا ، وكأنه واحد منهم » . . . ! !

يالَبَهاء عقلك ، وذكاء روحك . . ! !

انظروا . .

هذا ما يريده « عمر » تماماً – أُمراءَ فى أخلاقهم وتواضعهم . وليس فى تبذخهم وعلوِّهم . .

أمراء ، لا يفسح الناس لهم الطريق ، ولا يتخطَّون الرقاب . بل يمشون على الأرض هَوْناً ، ويعيشون قانعين . .

أمراء ، يشاركون الناس ولا يتميزون عليهم بغير العمل الصالح والجهد المبذول . .

ولقد تعلَّم هذا من خير المعلمين ، من رسول الله محمد عليه الصلاة والسلام .

فما كان الرسول يرى أصحابه فى عمل إلا شاركَهم ، آخذاً أكثر جوانب العمل مشقة . .

يجمع يوماً الحطب لأصحابه وهم سَفْر ، فإذا قالوا : نحن نكفيك ذلك يا رسول الله ، قال لهم : « إنى أكره أن أتميَّز عليكم » . .

ويسمع بعض أصحابه يقولون له : « أنت سيدنا ، وابن سيدنا ، فينهاهم قائلا : « لا يستغوينكم الشيطان » . .

ويقدُم على أصحابه ، فيقفون له ، فينهاهم قائلا : « لا تقوموا كما يقوم الأعاجم ، يعظم بعضهم بعضاً » . . ! !

* * *

ولا تقف مسئولية « عمر » عن ولاته عند حسن اختيارهم ، وحسن توجيههم . بل تنهض الى إقامة كل الضمانات التى تجعل ولايتهم على الناس رحمة ، ورخاء ، وأمنا . .

وسبيلُه لهذا ، أن يجعل الحاكم تحت رقابة المحكوم . . وأن يحقق بنفسه وعلى الفور كل شكوى يشكوها مواطن من حاكم ، وأن يتتبع فى يقظة عارمة سلوك ولاته فى كل الأمصار . . ! !

فى موسم الحج ، وعلى ملأ من الأعداد الهائلة من حجاج المسلمين القادمين من كل بلد ، جمع عماله وولاته جميعاً ، ووقف خطيباً :

- « أيها الناس ، إنى والله لا أبعث عمالى إليكم ، ليضربوا أبشاركم ، ولا ليأخذوا أموالكم ، ولكن أبعثهم إليكم ليعلموكم دينكم وسنة نبيكم ، فمن فُعل به سوى ذلك ، فليرفعه إلىَّ . فو الذى نفسى بيده لأمكنه من القصاص » . . ! !

ويقف « عمرو بن العاص » ، الذى رأى فى هذا الحضِّ خطرا على هيبة الولاة والحاكمين . فيقول : « أرأيتَ إن كان رجل من المسلمين والياً على رعية فأدّب بعضهم ، أتقتصُّ منه » . . ؟ ؟

ويجيب عمر : « إى والذى نفسى بيده لأفعلنّ ، فقد رأيت رسول الله

صلى الله عليه وسلم يُقصُّ من نفسه ، ويقول :

« من كنت جلدت له ظهراً فهذا ظهرى فليقتدْ منه » . . ! !

و « عمر » يعنى دائماً ما يقول ، فما كانت تبلعه شبهة عن وال حتى يتوافر عليها فى يقظة وحزم .

يسأل وفداً زاره من أهل حمص عن واليهم « عبد الله بن قُرط » فيقولون : خير أمير يا أمير المؤمنين ، لولا أنه قد بنى لنفسه داراً فارهة . .

ويُهمهم عمر : داراً فارهة . . ؟ يتشامخُ بها على الناس ؟ بَخٍ بَخٍ لابن قرط . .

ثم يوفد إليه رسولا ، ويقول له : ابدأ بالدار فأحرِق بابها . . . ثم ائت به إلىّ .

ويسافر الرسول إلى حمص . ويعود بواليها فيمتنع عمر عن لقائه ثلاثة أيام . ثم فى اليوم الرابع يستقبله ويختار للقائه مكان « الحرَّة » حيث تعيش إبل الصدقة وأغنامها . .

ولا يكاد الرجل يقبل ، حتى يأمره « عمر » أن يخلع حلته ، ويلبس مكانها لباس الرعاة ويقول له : « هذا خير مما كان يلبس أبوك . . » ثم يناوله عصاً ، ويقول له : « وهذه خير من العصا التى كان أبوك يَهُشُّ بها على غنمه » . ثم يشير بيده إلى الإبل ويقول له : « اتبعها وارْعَها يا عبد الله » . ! !

ثم بعد حين ، يستدعيه ، ويقول له معاتباً :

– هل أرسلتك لتشيد وتبنى . . ؟ ! ارجع إلى عملك ولا تعد لما فعلت أبدا . . ! !

هذا موقفه من رجل شهد له قومه بأنه خير أمير لولا أن ميَّز نفسه بدار رافهة . . ! !

ألا ترون أننا أمام أسطورة . . بل لو كانت أسطورة لصعب تصديقها . . ولكن لحسن حظ البشرية كلها أن « عمر » لم يكن أسطورة ؛ بل كان حقيقة ملأت الزمان والمكان . . وكان هدى من الله للناس يقول لهم : هكذا حاولوا أن تكونوا . .

* * *

وفى الوقت الذى تجمع الفرس وحلفاؤهم ، فى نهاوند . . وسعد بن أبى وقاص يتهيأ لمنازلة جيوشهم اللجبة ، تصل المدينة شكوى ضد سعد ، فيستدعيه « عمر » فوراً ، غير منتظر قليلا ريثما تنتهى المعركة الموشكة على البدء والاندلاع . . ذلك لأن « عمر » يرى أنه إذا كانت الشكوى صحيحة وصادقة ، فلن يُبقى على سعد . حتى لو خسر المسلمون المعركة كلها . . لأن النصر كما يقول « عمر » . إنما يبطئ عن كل قائد أو جيش يجترح السيئات . . ! !

وهكذا ، وفى هذا الظرف الدقيق الحرج ، يرسل « عمر » « محمد ابن مسلمة » إلى هناك ليفحص الشكوى فإن وجدها حقاً ، عاد بسعد إلى المدينة . .

ويذهب « محمد بن مسلمة » ويأخذ بيد سعد الفاتح الأعظم ، والوالى المهيب ، ويطوف به على الناس يسألهم الرأى فيه . . فقوم يقولون عنه خيراً . . . وآخرون يُحصون عليه بعض مآخذهم . . وأخيراً ، يصطحبه ابن مَسلمة إلى المدينة .

وإنا لنعرف نبأه مع حاكم مصر وفاتحها ، « عمرو بن العاص » حين وفد عليه من مصر ، فتىً مكروب يقول : يا أمير المؤمنين هذا مقام

العائد بك . .

ويستوضحه النبأ فيعلم منه أن « محمد بن عمرو بن العاص » قد أوجعه ضرباً ، لأنه سابَقه فسبَقه ، فعلا ظهره بالسوط وهو يقول : خذها ، وأنا ابن الأكرمين . . ! !

ويُرسِل أمير المؤمنين يدعو عمرو بن العاص وابنه محمداً ولندع « أنس بن مالك » يروى لنا النبأ كما شهده ورآه :

يقول : « . . فوالله إنّا لجلوسٌ عند عمر ، وإذا عمرو بن العاص يقبل فى إزار ورداء ، فجعل عمر يتلفت باحثاً عن ابنه محمد ، فإذا هو خلف أبيه . .

فقال : أين المصرى . . ؟

قال : ها أنذا يا أمير المؤمنين . .

قال عمر : خذ الدرّة ، واضرب بها ابن الأكرمين . .

« فضربه حتى آثخنَه ونحن نشتهى أن يضربه ، فلم يَنْزِع حتى أحببنا أن ينزع من كثرة ما ضربه ، وعمر يقول : اضرب ابن الأكرمين ! !

ثم قال عمر للمصرى : « أجلِهَا على صلْعة عمرو ، فوالله ما ضربك إلا بفضل سلطانه . . ! ! !

قال الرجل : يا أمير المؤمنين ، قد استوفيت ، واشتفيت ، وضربت من ضربنى . .

قال عمر : أما والله لو ضربتَه ما حُلنا بينك وبينه حتى تكون أنت الذى تدعه . .

ثم التفت إلى عمرو وقال : « يا عمرو ، متى تَعبَّدتُم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحراراً . . ؟ ! !

والتفت إلى المصرى وقال له : « انصرف راشداً . فإن رابك ريب فاكتب إلىّ . . ! ! »

هذا هو عمرو بن العاص ، صحابى من شيوخ الصحابة ، وحاكمُ إقليم من أكبر أقاليم الفتح الإسلامى ، ولا ينجو ولده من العقوبة ، بل وتكاد العقوبة تدرك عمرو بن العاص نفسه لولا عفو صاحب الحق . . . !

* * *

على أن هذه المواقف الصارمة الحازمة التى يقفها « عمر » من ولاته الذين قد يسيئون استعمال سلطانهم . . هذه المواقف تتحول إلى مشاهدَ أخرى يذوب فيها « عمر » حناناً وعطفاً حين يحقق مع أحد الولاة ، فيبدى بريئاً . .

ذات يوم تلقى شكاة ضد وال له ، هو « سعيد بن عامر الجُمحىّ » تتضمن ثلاثة مآخذ .

أولها : أنه لا يخرج إلى الناس حتى يتعالى النهار . .

ثانيها : أنه لا يجيب أحداً بليل . .

ثالثها : يغيب عن الناس كل شهر يوماً ، فلا يرى أحداً ولا يراه أحد . .

واستدعاه « عمر » ، وواجهه بالشَّاكِين ، وقال لهم تكلموا :

قالوا : لا يخرج إلينا حتى يرتفع النهار . .

ونظر أمير المؤمنين صَوْب سعيد وسأله أن يجيب . .

فقال : والله يا أمير المؤمنين . إنْ كنتُ لأكرهُ ذِكر السبب . ليس لأهلى خادم ، فأنا أعجن معهم عجينى ، ثم أجلس حتى يختمر ، ثم أخبز خبزى ، ثم أتوضأ وأخرج إليهم . .

وأشرقت أسارير « عمر » ، فقد بدا أنه لن يُساء فى رجل وثق فى دينه ، واختاره بنفسه . .

ثم قال للشاكين : وماذا أيضا . . ؟

قالوا : لا يحب أحداً بليل .

قال سعيد : والله . إن كنت لأكره ذكره . ، إنى جعلت النهار لهم ، وجعلت الليل لله عز وجل . .

قال عمر : وماذا أيضاً تشكون منه . . . ؟

قالوا : إن له فى الشهر يوما لا يقابل فيه أحداً . .

وقال سعيد : ليس لى خادم يغسل ثيابى ، فى هذا اليوم أغسلها ، وأنتظرها حتى تجف ، ثم أخرج إليهم آخر النهار . .

قال عمر وقد غمره الحبور والبشر : الحمد لله الذى لم يُخيب فراستى . . ! !

إن سعادته تكون غامرة ، حين تَخيب شكوى ، وتظهر براءة لأنه يريد أن يرى ولاته كلهم ، بل والناس جميعاً متفوقين على الضعف ، مُبَرَّأين من العيب . .

أرسل « عمير بن سعد » والياً على حمص ، فمكث هناك عاما لا يرسل خَراجها . ولا تصل منه أية أنباء ، فقال « عمر » لكاتبه :

« اكتب إلى عمير ، فإنى أخاف أن يكون خائنا » . . وأرسل إليه يستدعيه . .

وذات يوم شهدت شوارع المدينة رجلا أشعث أغبر ، تغشاه وعثاء السفر . يكاد يقتلع قدميه من الأرض اقتلاعا من طول ما لاقى من عناء ، وبدل من جهد . . على كتفه اليمنى خراب وقصعه . وعلى كتفه اليسرى

قربة صغيرة فيها ماء . . وإنه ليتوكأ على عصاً لا يؤودها حمله الضامر الوَهْنان . .

ودَلَف إلى مجلس « عمر » فى خطوات مُتَّئِدة . .

– « السلام عليك يا أمير المؤمنين » . .

ويرد « عمر » السلام ، ثم يسأله وقد آلمه ما رآه عليه من جهد وإعياء

– ما شأنك يا عمير ؟ ؟

شأنى ما ترى . . ألست ترانى صحيح البدن ، طاهر الدم ، معى الدنيا أجرها بقرنها . . ؟ !

قال عمر : وما معك . . ؟

قال عمير : معى جرابى أحمل فيه زادى ، وقصعتى آكل فيها ، وإداوتى ، أحمل فيها وضوئى وشرابى ، وعصاى أتوكأ عليها . وأجاهد بها عدواً إن عَرَض ، فوالله ما الدنيا إلا تبع لمتاعى . .

قال عمر : أجئت ماشياً . . ؟ ؟

– نعم . .

أو لم تجد من يتبرع لك بدابة تركبها . . ؟ ؟

– إنهم لم يفعلوا ، وإنى لم أسألهم . . !

– فماذا عملت فيما عهدنا إليك به ؟ ؟

– أتيتُ البلد الذى بعثتنى إليه ، فجمعتُ صُلحاء أهله ، ووليتهم جِباية فيئهم وأموالهم . حتى إذا جمعوها وضعتُها فى مَواضعها ، ولو بقى لك منها شىء لأتيتك به . .

– فما جئتنا بشىء . . ؟

- لا . . .

قال « عمر » وهو منبهر سعيد : « جَدِّدوا لعمير عهداً » . .

قال عمير : « تلك أيام قد خلت ، لا عملتُ لك ولا لأحد بعدك » ! !

▫ ◦ ▫

والويل الشديد للوالى الذى يفكر فى أن يهدى لعمر هدية مَا . .

والحق أنهم جميعاً كانوا من الفطنة بحيث لم يتورطوا قط فى أمر كهذا . . ! !

ولم يفعله منهم مرة واحدة سوى الرجل الصالح الطيب « أبى موسى الأشعرى » . .

فذات يوم عاد أمير المؤمنين إلى داره ، فوجد رقعة من سجاد لا تزيد على متر ، وبعض متر ، فسأل زوجه « عاتكة » . .

- « أنَّى لك هذه . . ؟ ؟ »

قالت : أهداها إلينا أبو موسى الأشعرى .

« أبو موسى . . ؟ ؟ ايتونى به » . . ! !

ويجىء أبو موسى ، تَسبقه مَخاوفه ، ولا يكاد يقترب من « عمر » ويلمح « السحادة » فى يمينه ، « والتحفز » فى وجهه حتى يبادره القول « لا تَعجَلْ علىَّ يا أمير المؤمنين » . .

ولكن أمير المؤمنين ، يُعاجله ، ويلفح بالسحادة رأسه ويقول له :

– ما يحملك على أن تهدى إلينا ؟ خذها فلا حاجة لنا فيها . . ! !

والويل كذلك . لمن يطمع فى أن يتسوَّر مسئوليات هذا الرجل الكبير بشفاعة يشفعها فى غير حق . .

حدث يوماً أن أنزل بأحد ولاته جزاء ، فانتهزت زوجه « عاتكة » ساعة من ساعات فراغه وهدوئه ، وشفعت للرجل . ولم ترد على أن قالت : يا أمير المؤمنين ، فيمَ وجدت عليه . . ؟

هنالك انتفض « عمر » ، كأنما انهدَّ من دين الله ركن ، وصاح فيها :

- « يا عدوة الله ، وفيم أنت وهذا » . . . ؟ !

لو كان هذا الموقف من زوجته مشورة ورأياً ، لتقبل المشورة ، وبحث الرأى ، فسراه بعد حين يبحثى فى إعجاب وخشوع لسيدة عارضت رأيه فى تحديد المهور . .

أما هنا ، فقد تصور « عمر » الموقف على أنه تدخل فى المسئوليه من غير مسئول ، ولون من الشفاعة أو الوساطة لا يسكت « عمر » عليه ، ولا يتسامح معه . .

هذه مسئوليته تجاه ولاته . .

فلننظر مسئوليته تجاه أموال الأمة . . وإنها لمسئولية تحير العقول وتبهر الأفئدة

ولنبدأ بهذا النبأ

يقول عبد الله بن عامر بن ربيعة :

. صحبت عمر بن الخطاب من المدينة إلى مكة فى الحج ، ثم رجعنا ، فما ضُرب له فسطاط ، ولا خباء ، ولا كان له بناء يستظل به . إنما يلقى كساء على شجرة فيستظل تحته » . . ! !

ويقول بشار بن نمير :

. . . وسألنى عمر : كم أنفقت فى حجتك هذه ؟ قلت : خمسة عشر ديناراً . فقال : لقد أسرفت فى هذا المال . . . ! !

أرأيتم إلى الرجل الذى وُضِعتْ تحت عتبة حزائنه أموال كسرى وقيصر ، ثم يخرج إلى الحج وسط صحراء ملتهبة ، فلا يهيئ لنفسه من ضرورات الرحلة شيئا . . . ؟ ! يذوق وَقْدة الحر ، وقيظ الحمال المستعرة . مثلما تذوقه كافة الناس ، وينفق خلال رحلته كلها خمسة عشر ديناراً . ثم يقول : لقد أسرفنا . . ؟ !

قبل أن يلى أمور المؤمنين ويصير أميرهم ، كان تاجراً يكسب عيشه ورزق أهله وعياله من التجارة ، فلما تفرغ لمهمته الجديدة ، فرض لنفسه من بيت المال ما يعيش به هو وعائلته فى مستوى الكفاف . . .

وكان مع الأيام تزداد تبعاته ، وتزداد احتياجاته ونفقاته ، ويرفع كلما هب الرخاء رواتب جميع المسلمين فى المدينة وخارجها ، لكنه لا يفكر فى أن يزيد نفسه درهما . . حتى سمع أصحابه يوما أن أمير المؤمنين يقترض ليعيش ، فاجتمع نفر من الصحابة معهم عثمان ، وعلى وطلحة ، والزبير ، واتفقوا على أن يتحدثوا معه ، ويطلبوا إليه أن يزيد فى راتبه ، ومخصَّصاته ، لكنهم عادوا وتهيَّبوا محادثته ، لأنهم يعرفون أنه فى هذه المسألة بالذات شديد الوطأة ، لافحُ الغضب . .

قال عثمان : فلنستَشِرْ ما عنده من وراء وراء . . واتجهوا إلى حفصة بنت عمر ، واستكتموها أمرهم ، وطلبوا إليها أن تستطلع امر أبيها . .

وذهبت حفصة إلى عمر متهيبة ، وأخذت تسوق الحديث بحذر ورفق .

فقال عمر : من بعثك إلىَّ بهذا . . ؟

قالت : لا أحد . .

قال : بل بعثك بهذا قوم ، لو عرفتهم لحاسبتهم . .

ثم قال لابنته : لقد كنت زوجة لرسول الله فمادا كان يقتنى فى بيتك من الملبس . . . ؟

قالت : ثوبين اثنين . . ! !

قال : فما أطيب طعمة رأيتيه يأكلها . . ؟

قالت : خبز شعير طرى مُرْود بالسمن . .

قال : فما أوطأ فراش كان له فى بيتك . . ؟

قالت : كساء ثخين . كنا نبسطه فى الصيف ، فإذا كان الشتاء بسطنا نصفه . وتدثرنا بنصفه . . ! !

قال يا حفصة : « فأبلغى الذين أرسلوك إلى . أن مثلى ومثل صاحبَىَّ - الرسول وأبى بكر - كثلاثة سلكوا طريقاً . فمضى الأول وقد تزوَّد فبلَغ المنزل . . ثم اتبعه الآخر ، فسلك طريقه فأفضى إليه . . ثم الثالث ، فإن لزم طريقهما ورضى بزادهما أُلحق بهما . . وإن سلك غير طريقهما لم يجتمع بهما » . . ! ! !

أهناك كلام يصلح أن يكون تعليقاً على هذا المشهد الفذ العجيب . . ؟ ! كلا . . فلندعه بدون تعليق . . ! ! !

* * *

وكانت القيامة تقوم إذا سمع « عمر » أن درهماً واحداً من الأموال العامة قد اختُلِس ، أو انتُهب ، أو أنفق فى ترف أو إسراف .

كان يرتجف ، ويُرجِف ، كأنَّ خزائن المال كلها قد ضاعت ، وليس درهما أو بعض درهم . . ! !

وكان يُقسم لو أن بعيراً من إبل الصدقة ضاعت على ضفاف دجلة

أو الفرات ، وعمر بالمدينة ، لخاف أن يسأله الله عنه . . ! !

وفى يوم صائف قائظ يكاد حره يذيب الجبال ، أطل « عثمان بن عفان » من بناية له بالعالية ، فرأى رجلا يسوق أمامه بعيرين صغيرين والهواء الساخن يغشاه كلفح السَّمُوم . .

فقال محدثا نفسه : ما على هذا الرجل لو أقام بالمدينة حتى يُبرد . ؟ وأمر خادمه أن ينظر مَن هذا الرجل العابر من بعيد ، والذى تخفى الزوبعة والرمال السافيات معالمه . .

ونظر الخادم من فُرجة الباب ، فقال : أرى رجلا معمما بردائه يسوق بَكْرَيْن أمامه . وانتظر حتى اقترب الرجل ، فعرفه الخادم وصاح : إنه عمر . . إنه أمير المؤمنين . . ! !

فأخرج عثمان رأسه من كُوة صغيرة متوقياً سخونة الريح ، ونادى : ما أخرجك هذه الساعة يا أمير المؤمنين ؟

أجاب عمر : بكران من إبل الصدقة ، تخلفا عن الحمى المرعى — وخشيت أن يضيعا ، فيسألنى الله عنهما . . ! !

قال عثمان : هلم إلى الظل والماء ، ونحن نكفيك هذا الأمر

فقال له عمر : عد إلى ظلك يا عثمان . .

قال : عندك من يكفيك هذا الأمر يا أمير المؤمنين . .

قال مرة أخرى : عد إلى ظلك يا عثمان . . ومضى لسبيله والحر يصهر الصخر . .

فقال عثمان مأخوذا ومبهورا : « من أراد أن ينظر إلى القوىّ الأمين ، فلينظر إلى عمر . . » ! ! !

والقوى الأمين يباشر مسئولياته المالية . مباشرة ذكية عميقة فهو لا يُعنى

بالسهر على حفظ أموال الأمة فحسب ، بل ويُعنىَ بالعمل على تنميتها . وارباء الدخل القومى بكل سبيل ممكنة . .

« فهو مثلا - يقاوم فكرة توزيع أرض السواد على الفاتحين لأن ذلك يخلق طبقة محتكرة ، وفى الوقت نفسه ، عاجزة عن خدمة الأرض ، غير حيرة بزراعتها ، ويترك الأرض تحت أيدى زارعيها ، مكتفيا بالضرائب التى تدفع لبيت المال ، ثم ينال كل مسلم حظه منها . .

« وهو يشجع على إحياء الأرض الموات التى لا صاحب لها . والتى قال فيها رسول عليه السلام « من أحيا أرضاً ميتة فهى له » . .

وحين يرى أمير المؤمنين أناساً يضعون أيديهم على هذه الأرض ، ويُسوِّرونها ، ثم يهملون استصلاحها وزراعتها ، يسن قانوناً يمنح « واضع اليد » فرصة مداها ثلاث سنوات فإذا عجز خلالها عن إحياء الأرض وتحويلها إلى حقل ، أو بستان ، أو مرعى ، نُحِّى عنها ، وأعطيت لغيره من القادرين . .

« وهو كذلك يحض المسلمين على الكسب المشروع ، فيغريهم بالتجارة الشريفة النظيفة ، قائلا لهم : غدا سيكون لكم أسماء وحفَدة ، فماذا يغنى عنكم هذا الذى بأيديكم . . ؟ !

« وهو يعنى عناية خاصة بالثروة الحيوانية ، فيخصص للماشية مرعى خصيباً رحيباً ، يرعى المسلمون فيه ماشيتهم بغير مقابل ، وإنه ليتعهد هذا المرعى دائماً ، وقلما كان يوم يمر دون أن يرى الناس « عمر » ، قد خرج منتصف النهار ، واضعاً ثوبه فوق رأسه ليقيه من الشمس ، قاصداً أرض الحمى والمرعى ، يتعاهدها ويتفقدها ، ويحذر حارسها من أن يسمح لأحد

أن يَعضِد شيئاً من شجرها ، أو أن يضرب فيها بفأس . . ! !

* * *

ولا يخطر بالبال ونحن نتحدث عن المال وعن الدخل القومى أيام عمر ، أننا نتحدث عن أموال شحيحة وموارد ضَحْلة ، فإن « عمر » لم يمت إلا بعد أن كان يحرك يده القوية الأمينة فى دخل من أضخم الدخول يومئذ بعد أن آلت إلى الإسلام معظم ممتلكات الروم والفرس . . ! !

ولم يمت « عمر » حتى كان هناك لكل فرد راتب سنوى يكفيه أو يقارب كفايته ، لا فى عاصمة الدولة وحدها ، وهى المدينة ، بل فى كل أقطار الإسلام . . ! ! !

يقول له خالد بن عرفطة :

– « يا أمير المؤمنين تركتْ الناس يسألون الله أن يزيد فى عمرك من أعمارهم . . ما وَطِئَ أحد القادسية إلا وعطاؤه ألفان ، أو خمس عشرة مائة . وما من مولود يولد إلا ألحق فى مائة وجريبين كل شهر ذكراً كان أو أنثى . وما يبلغ لنا ولد إلا ألحق على خمسمائة أو ستمائة » . . ! !

وحِرص عمر على تنمية الثروة ، لم يحمله قط على سلوك سبيل فيها حشع أو إرهاق . .

فالثروة عند عمر ، فى خدمة الإنسان ، وليس الإنسان فى خدمة الثروة . . ! !

لهذا ، كان يُنزل غضبه الشديد على كل وال يحرم أهل ولايته لكى يرفع إلى المدينة خَراجاً كبيراً بظن أنه يُكسبه رضاء أمير المؤمنين . .

وكان يأمر أن تقسم خيرات البلد - أىّ بلد – على أهلها أولا ، فإذا

بلغوا كفايتهم . رفع إلى عاصمة الدولة نصيبها . .

وكان يأمر عماله أن يتقاضوا الضرائب فى رفق وعدل ورحمة .

حُمل إليه يوماً مال وفير من أحد الأقاليم ، فسأل عن مصدره وعن سر وفرته وكثرته ، فلما علم أنه من ضريبة الزكاة التى يدفعها المسلمون ، وضريبة الجزية التى يدفعها أهل الكتاب ، قال وهو ينظر إليها كثيرة عارمة :

إنى لأظنكم قد أهلكتم الناس . .

- قالوا : لا والله ، ما أخذنا إلا صَفْواً عَفْواً . . .

قال : بلا سوط ، ولا نوط . . ؟؟

قالوا : نعم . .

قال ووجهه يتهلل ويُشرِق : « الحمد لله الذى لم يجعل ذلك علىَّ ولا فى سلطانى » . . ! !

وكان يُعفى من ضريبة أهل الكتاب ، كل من عليه دين يستغرق ماله . ذلك لأنها لم تكن ضريبة إذلال ، بل ضريبة دخل ، فإذا عجز عنها دافعها ، وضعت عنه فوراً . . ! !

وبعد . . فهذا هو « عمر » ، الحاكم المسئول . . وهذه هى طريقته فى تحمل مسئولياته جميعها .

هذا هو الرجل الذى كانت جيوشه تُذيل مظالم الروم والفرس وتدكُّها دكًّا ، بينما هو يسير فى طرقات المدينة لابساً ثوباً به إحدى وعشرون رقعة . . ويبطئ عن المسلمين يوماً فى صلاة الجمعة ثم يعتذر إليهم حين يصعد المنبر قائلا :

- « حبَسنى قميصى هذا ، لم يكن لى قميص غيره » . . ؟ ؟ ؟

إن مسئولياته المباركة دفعته إلى نهايات الطرق ، وقمم المثل ، فجاءت تصرفاته كلها تمثل أقصى ما يستطيع الكمال الإنسانى أن يبلغه . .

• فتجاه مسئوليته عن نفسه وأهله ، يُحمّلهم كل مغارم الحكم ويحرمهم من كل مغانمه . . ! !

• وتجاه ، وُلاته ومعاونيه ، يختارهم بنفسه . ويُلزمهم صراطاً مستقيما أحدَّ من الشفرة ، وأرقَ من الشعرة . . ! !

• وتجاه أموال الأمة ، يبلغ أقصى درجات الحِفاظ عليها ، والزهد فيهـا . . ! !

• وتجاه الجبارين العتاة ، يبلغ أقصى أسباب الشدة والحزم . . ! !

• وتجاه الضعفاء والبسطاء يبلغ غاية المدى فى الحدب واللين . . ! !

إن مسئوليته تقوده . وإنه ليباشرها بروح المُخْبِت العابد الأوّاب . .

وإن عظمة سلوكه ، كرجل مسئول ، لا تتمثل فى العجالة التى سردناها إلا كما يتمثل ضوء الشمس فى الشعاعة المتسلسلة من حَنايا النافذة . . ! ! !

ألا وإن عمر الحاكم ، ليتعب كل حكام التاريخ ، ويجعل مسئوليتهم فادحة وكبيرة . .

ذلك أنه لم يكن إلاهاً ولا ملكاً ، ولا رسولاً يوحى إليه . ، إنما كان فرداً من الناس يجتهد رأيه ، وينهض بعزمه . ولقد استطاع أن يبلغ ذلك الشأو البعيـد فى عدله ، وفى رحمته ، وفى أمانته ، فما عـذر الآخرين إذا قعدت بهم عزائمهم ؟ ! . . .

إن « عمر » الحاكم ، حجة الله على كل حاكم . .

فإذا قال حاكم مّا ، ساعة حسابه : يا رب عجزت . .

قال الله له : ولِمَاذا لم يعجز عمر . . ؟ ؟ ! !

الفصل الرابع

ولاخير فينا إذا لم نسمعها

لم يكن أمير المؤمنين يحمل مسئوليته حُملان رجل مفتون بنبوغه صَلِف بمكانه ، مُسْتعلٍ بسُلْطانه .

بل كان يحملها بضمير الأمين على العهد . الباحث عن الحق ، المستنهض وجود الآخرين وتفكيرهم ليأخذوا مكانهم معه ، ويُنضجوا بآرائهم رأيه ، ويُعاونوا بُرشدهم رُشده . .

ولقد اقتضاه هذا ، أن يُقدّس الشورى ، ويحنى رأسه العالى فى خشوع وتهلل لكل معارضة شجاعة صادقة . .

فإذا بهرنا جلال المسئولية عند « عمر » ، وسُموقها الصاعد فى السماء ، فلنضع أعيننا على القاعدة التى استقرّ فوقها هذا البناء العملاق . ألا وهى الشورى والمعارضة .

وإنه لأمر عجيب حقًّا أن يرفع لواء الرأى والمعارضة إلى المدى البعيد الذى سراه ، رجل يؤمن بالنصوص إيماناً مطلقا . . . رجل يخاف أن يفسر الآية من القرآن ، خشية أن يُحملها من رأيه مالا تحتمل . . !

رجل لا يبيح لنفسه أن يحرف قيد أنملة عن المنهج الموضوع ، والخطة المرسومة ، وبعبارة واحدة : رجلُ طاعةٍ ، وإيمانٍ ، ومُتابَعَة . . ! ! !

ولكن العجب ، أن نرى فى هذه الظاهرة أىَّ عجب . .

فالدين يعرفون محمداً ودين محمد معرفة سوية عاقلة ، يعرفون أن احترام النَص ، لا يعنى إهدار الرأى . وأن الطاعة المؤمنة ، لا تنفصل عن المعارضة الأمينة . .

ثم إن « عمر » لم يكن بطبيعته رجل مُسايرة . صحيح أنه رجل إيمان وطاعة كما ذكرنا .

ولكنها الطاعة والإيمان والمتابعة التى يفرضها الاقتناع الوثيق

وهو قد اقتنع بالرسول وآمن به . ومن ثم فهو يقفو أثره فى غير تردد أو التفات . .

وإنه ليناقش الأمور التى تحتاج إلى مناقشة . . . ويُسلِّم تسليما لقضايا لا يفهم أحيانا حكمتها ، ولكنه مقتنع سلفا بالرسول الأمين الذى جاء بها .

يُقبِّل الحجر الأسود فى الكعبة ، ثم يقول كأنه يخاطبه :

— « إنك حجر لا تضر ولا تنفع ، ووالله لولا أنى رأيت رسول الله يقبلك ما قبلتك » . . ! !

ويُهرول كاشفاً عن منكبيه ، ويقول :

— « فيم هذا الرَّملان ، — الهرولة — والكشف عن المناكب ، وقد أظهر الله الإسلام ونفى الكفر ؟ ومع هذا لا ندع شيئ كنا نفعله فى عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم » .

بل إنه ليعمد إلى ميزاب فى دار العباس فيقتلعه من مكانه إذْ كان

ماء المطر يسيل منه إلى فناء المسجد . ولكن لا يكاد العباس يخبره أن الرسول هو الذى وضع هذا الميزاب مكانه ، حتى يسارع « عمر » ، فيجىء بالميزاب ، ويقسم على العباس ليقفن فوق منكبيه - منكبي عمر - ويعيد الميزاب إلى حيث وضعته يد الرسول من قبل . . ! !

وإنه ليُسأل عن تفسير الآية الكريمة : « والذّاريات ذَرْواً فالحاملات وقْراً » فيقول : الذاريات دروا ، هى الريح . . . ولولا أنى سمعت رسول الله يقوله ما قلته ، والحاملات وقراً ، هى السحب . . ولولا أنى سمعت رسول الله صلى عليه وسلم يقوله ما قلته . . ! !

إلى هذا الحد كان « عمر » وقافاً عند النصوص والتعاليم ، ملتزما التأسّى والقدوة .

ومع هذا ، فقد آمن بالشورى إيمانا مماثلا لإيمانه بالنص والقدوة — والشورى رأى ومعارضة . .

ولست أعرف شيئا يرفع من قدر الشورى فى كل عصور التاريخ كما يرفع من قدرها إيمان « عمر » بها . وأسلوبه فى تطبيقها . .

إن تطور الحياة السياسية فى المدينة لم يكن يومئذ قد أذن للمؤسسات الديمقراطية أن تظهر ، من « برلمان » وغيره . .

ومع هذا فقد ظفرت الديمقراطية من ذلك الرجل ، وفى تلك البيئة وذلك العهد ، خير فرص التألق والازدهار . .

لم يحاول عمر قط أن يفرض رأيه ، أو أن يُملى مشيئته ، ولم ينفرد ساعة من نهار بحكم الناس دون أن يشركهم معه فى مسئولية هذا الحكم مشاركة فعّالة صادقة . .

والرائع الباهر فيه ، أنه لم يكن يفعل ذلك تواضعاً أو تفضُّلا . . بل

سجية ، وفطرة ، وواجبا . .

إذا كانت القضية التى يريد عمر أن يفصل فيها ، لها فى كتاب الله بيان أنجز « عمر » كلمة الله . .

وإذا كانت من المشاكل الطارئة والقضايا الجديدة التى ليس لها فى الكتاب تفصيل ، لم يعتسف « عمر » ولم يتكلف ، ولم يضع الآية الكريمة : « ما فرَّطنا فى الكتاب من شىء » فى غير موضعها .

بل يعمد من فوره إلى الرأى والشورى وتقليب وجوه النظر . .

والرأى عنده . ليس التماساً للموافقة ، بل التماسا للحقيقة ولطالما كان يقول للناس :

– لا تقولوا الرأى الذى تظنونه يوافق هواى . وقولوا الرأى الذى تحسبونه يوافق الحق . . .

ولنطالع هذا المشهد من مشاهد شُوراه :

– حين حرر المسلمون بلاد العراق من حكم الفرس ، ودخل أكثر أهلها فى دين الله ، رأى « عمر » ألا يقسم أرضها الزراعية بين المجاهدين ، وأن تظل كما هى بأيدى أصحابها ، ثم ترد الضرائب المأخوذة عليها إلى بيت المال ، فتقسم بين الناس جميعا كل منهم ونصيبه المفروض .

وكان يرى أن تقسيم الأرض بين المجاهدين ، سيقعد بهم عن الجهاد أولا ، وينقص غلَّة الأرض لضعف حيرة المجاهدين بالزراعة ثانياً ، ويخلق فى الإسلام طبقة من الإقطاعيين والمحتكرين ثالثا . كما أنه سيدع الآخرين الذين لم يتملكوا ، ضائعين ، ويحرم الأجيال الوافدة من حقها ورزقها .

وعارض رأيه هذا نفر من الصحابة .

وكانوا كلما علا صوتهم ، واحتدَّت معارضتهم . قال « عمر » فى هدوء :

« إنما أقول رأيى الذى رأيته » . .

وانفض الجمع من غير اتفاق على كلمة . .

وفى اجتماع آخر ، وكان « عمر » قد دعا فريقاً من الأنصار المشهود لهم بالحُكمة ونضج التجربة . فُتح باب المناقشة ، وخشى « عمر » أن يحامله أحد فى رأيه بوصفه أمير المؤمنين . فبدأ الحديث قائلا :

« إنى دعوتكم لتُشاركونى أمانة ما حملتُ من أموركم ، فإنى واحد كأحدكم ، وأنتم اليوم تقرون بالحق . خالفنى من خالفنى . ووافقنى مَن وافقنى . ولستُ أريد أن تتبعوا هواى ، فمعكم من الله كتاب ينطق بالحق . فو الله لئن كنتُ نطقت بأمر أريده ، فما أريد به إلا الحق » . . .

* * *

والشورى . والمعارضة عند أمير المؤمنين ، هما جناحا الحكم الصالح القويم ، وهما رِئتا كل حكم سديد .

من أجل هذا ، لا يكاد يلى الأمر . ويتسمَّع همس الناس حول شدته وصرامته حتى يخلو بنفسه مفكراً ، ويدخل عليه « حُذيفة » فيجده مهموم النفس باكى العين . فيسأله : مادا يا أمير المؤمنين ؟ ؟

فيجيب عمر : إنى أخاف أن أخطئ فلا يردنى أحد منكم تعظيماً لى . .

يقول حذيفة ، فقلت له :

« والله لو رأيناك حرجت عن الحق . لرددناك إليه » .

فيفرح « عمر » ، ويستبشر ويقول :

« الحمد لله الذى جعل لى أصحاباً يُقوموننى إذا اعوججت » . .

إن أعظم مظاهر التكريم للمعارضة ، نراها فى مواقف هذا العاهل

الفذ منها . . فى ولائه الوثيق لها ، وتوفير كل فرص الطمأنينة والأمن بل الإكبار لذويها . .

يصعد المنبر يوماً فيقول :

« يا معشر المسلمين ، ماذا تقولون لو مِلْتُ برأسى فى الدنيا هكذا . . ؟ ؟

فيشق الصفوفَ رجل ويقول وهو يلوح بذراعه كأنها حُسام ممشوق :

« إذن نقول بالسيف هكذا . .

فيسأله عمر : إيَّاى تعنى بقولك . . ؟ ؟

فيجيب الرجل : نعم إياك أعْنى بقولى . . !

فتُضىء الفرحة وجه « عمر » ويقول :

« رحمك الله . . والحمد لله الذى جعل فيكم من يقوِّم عوجى ». ! !

لم يكن هذا الموقف من أمير المؤمنين موقفا استعراضيًّا ، فعمر أكثر قوة وأمانة ، من أن يلجأ لمثل هذه المواقف ، إنما كان سلوكاً صادقا ، ونهجا تلقائيًّا مخلصا ، ينشد « عمر » من ورائه الوصول إلى الحق والطمأنينة إلى أنه يحكم أمة من الأُسود ، لا قَطِيعاً من النعاج . . . ! !

إن « عمر » حريص على أن يمكن الناس - جميع الناس - من حقهم فى ممارسة الأمر معه وأخذ مكانهم إلى جانبه .

ولو أنه بطش بالمعارضة ، ولو مرة ، إذن لماتت الشورى فى عهده بجِدلان كبير ، لكنه فعل نقيض هذا تماما . . أقْصى عنه أهل المُحاملة والمُداهنة ، ورفع مكاناً عاليا أولئك الذين يُناقشون ، ويعارضون . ويقولون : إلى أين . . ؟ ولماذا . . ؟

وكان فرحه بكلمة جريئة مُحِقَّة يُحاكيه بها ، أو يُجابَه بها أحد من وُلاته تفوق كل فرح آخر على وجه الأرض . .

ذات يوم يصعد المنبر ، ليحدث المسلمين فى أمر جليل ، فيبدأ خطبته بعد حمد الله . بقوله « اسمعوا يرحمكم الله » .

ولكن أحد المسلمين ينهض قائماً ، فيقول .

والله لا نسمع . . ، والله لا نسمع . . ! !

فيسأله « عمر » فى لهفة . ولم يا سلمان . . ؟ !

فيجيب « سلمان » ميَّزت نفسك علينا فى الدنيا أعطيت كلا منا بردة واحدة ، وأخذت أنت بُردتين . . ! !

فيُجيل الخليفة بصره فى صفوف الناس ثم يقول :

أين عبد الله بن عمر . . ؟

فينهض ابنه عبد الله . ها أنذا يا أمير المؤمنين . .

فيسأله عمر على الملأ : مَن صاحب البردة الثانية . . ؟

فيجيب عبد الله : أنا يا أمير المؤمنين . .

ويخاطب « عمر » سلمان والناس معه فيقول :

– إنى كما تعلمون رجلٌ طُوال ، ولقد جاءت بردتى قصيرة ، فأعطانى عبد الله بردته ، فأطلت بها بردتى . .

فيقول سلمان وفى عينيه دموع الغبطة والثقة :

– الحمد لله . . والآن قل نسمع ونُطع يا أمير المؤمنين ! ! . .

أيبلغ الناس من حرية المعارضة أن يُحددوا للحاكم عدد أثوابه وملابسه ، وبهذه اللهجة الصارمة . . ؟ !

ألا من كان يعرف لهذا نظيرا فى التاريخ كله ، فليأتنا به . . ! !

* * *

فى يوم آخر ، وهو جالس مع إخوانه ، يحترم الصفوفَ رجل ثائر ، ملء قبضته شعر محلوق ، ولا يكاد يبلغ « عمر » حتى يقذف بالشعر فى صدره فى مرارة واحتجاج . .

ويموج الناس بالغضب ، ويهمّ به بعضهم ، فيومئ إليهم « عمر » ثم يجمع الشعر بيده . ويشير للرجل ، فيجلس ، وينتظر عليه « عمر » حتى يهدأ روعه ، ثم يقول له :

- والآن ، ما أمرُك . . ؟ ؟

فيجيب الرجل وقد عادت إليه ثورته :

أما والله ، لولا النارُ يا عمر . . . ! !

فيقول عمر : صدقت والله . . لولا النار . . ! ! ما أمرك يا أحا العرب . ؟

ويقص الرجل شكاته ، وفحواها أن « أبا موسى الأشعرى » أنزل به عقوبة لا يستحقها . . فجلده وحلق شعر رأسه بالموسى . فجمع الرجل شعر رأسه وجاء به إلى « عمر » . .

فينظر عمر إلى وجوه أصحابه ويقول :

- لأنْ يكون الناس كلهم فى قوة هذا ، أحبَّ إلى من جميع ما أفاء الله علينا . . ! !

ثم يكتب لأبى موسى يأمره أن يُمكّن الرجل من القصاص منه جلْداً بجلْد وحلْقاً بحلق . . ! ! !

هذا حاكم يهتز فرحاً لكل احتجاج قوى ، أو معارضة شجاعة - وإن رجلا واحدا يطالب بحقه فى غير حذر ، ويقول كلمته فى غير جبن لأحب إليه كما قال . من كل ما فُتح له من الأرض ، ومن كل ما ورث عن كسرى وقيصر . . ! !

كان « عمر » واثقاً بنفسه . وباستقامة نهجه ، ومن ثم لم يكن يُحاذر النقد أو يخاف المعارضة ، بل كان يبحث عنهما ، ويُثيب عليهما ، ويثيرهما فى قلوب أمته وعقول شعبه . ويتخذ منهما مَشعلا يستضئ به وحُجَّة يستكمل بها صواب أمره . .

يخطب الناس يوماً فيقول :

– « لا تزيدوا مُهور النساء على أربعين أوقية ، فمن زاد ألقيت الزيادة فى بيت المال » . .

فتنهض من صفوف النساء سيدة تقول : ما ذاك لك . .

فيسألها : ولم . . ؟

فتجيبه : لأن الله تعالى يقول : « . . وآتَيْتُم إحْداهنَّ قِنطارا فلا تأخذوا منْه شيئا ، أتأخذونه بُهتاناً وإثماً مُبيناً » .

فيتهلل وجه « عمر » . ويبتسم ويقول عبارته المأثورة : « أصابت امرأة ، وأخطأ عمر » . .

وحتى حين كانت تأتيه المعارضة غضبى لاذعة لم يكن يضجر منها أو يضيق بها .

بعد أن عزل « خالد بن الوليد » جمع الناس فى المدينة وقال لهم :

– « إنى أعتذر إليكم من عزل خالد ، فإنى أمرته أن يحبس هذا المال على ضَعَفةِ المهاجرين ، فأعطى ذوى البأس ، وذوى الشرف ، وذوى اللسان » . . .

فنهض أبو عمرو بن حفص بن المغيرة وقال :

– « والله ما أعذرتَ يا عمر ، ولقد نزعت فتى ولاّه رسول الله ، وأغمدت سيفا سلّه رسول الله ، ووضعت أمرا رفعه رسول الله . وقطعت

رَحِماً ، وحسَدتَ بنى العم » . . ! !

قطيعة رحم . . وحَسد . . يُتهم بهما أمير المؤمنين هكذا فى غضب وعلى الملأ . . ؟ !

أجل ، وما زاد « عمر » على أن ابتسم ابتسامة صافية ، وقال مخاطبا « عمرو » : « إنك قريبُ قَرابةٍ ، حديث السن ، تغضب فى ابن عمك » . . !

* * *

هذا ليس حاكما عادلا وحسب . . بل هو معلم كبير ، وصاحب مهارة بالغة فى صقل الجوهر الإنسانى وبعث قواه .

فأى أثر باهر يتركه موقف كهذا فى أفئدة الناس . . ؟ ؟

وأية طمأنينة غامرة يملأ بها نفوسَ حاكم هذا سلوكه . . ؟ !

ولكن ، لم لا يفعل « عمر » هذا ، وأكثر منه . وهو تلميذ رسول الله وصاحب أبى بكر خليفته . . ؟ !

ولقد رأى بعينيه وسمع بأذنيه أعرابيًا من أهل البادية يتهجم على رسول الله عليه السلام ويقول له وهو بين أصحابه :

— « أعطنى . فليس المال مالك ولا مالَ أبيك »

ويرى الرسول يبتسم ، ويقول للرجل :

— « صدقت » إنه مال الله . ! !

ويستفزّ المشهد رجلا ، هو « عمر » نفسه ، فيهمّ بالأعرابى ليبطش به ، فيرده رسول الله فى رفق وبتسامته تعلو شفتيه كتهلُّلِ الربيع ، ويقول له :

— دعه يا عمر . إن لصاحب الحق مقالا » . . ! !

أجل ، على هذا النهج المستقيم يمضى عمر مُقدِّراً كل نقد نافع ،

موقّراً كل معارضة أمينة . .

وإن لجميع الناس الحق فى أن يشيروا على أمير المؤمنين ، وفى أن يعارضوا ما لا يقنعهم من تصرفاته .

ولقد تركهم يفهمون تماماً أن الشورى ليست ترفاً ، ولا ملءَ فراغ . . إنما هى نهوض الشعب بمسئولياته مع الحاكم يداً بيد ، ورأيا برأى ، ومشيئة بمشيئة . .

وكان إيمان الناس بأن أميرهم جاد فى معرفة آرائهم ، وتمحيص رأيه . .

وكانت التجارب الكثيرة التى أثبتت حفاوته بالمعارضة ، واحترامه للشورى . .

كان هذا وذاك على رأس الحوافز التى ألهمت الناس - جميع الناس الشجاعة فى إبداء الرأى ، والمشاركة فى حمل تبعة المصير .

لقد كان عمر خبيراً بأولئك الذين يرصُدون الريح ، ويستنطون هوَى الحاكم . فيسقونه بالرأى الذى يساير هواه . . ! !

كان خبيراً بهؤلاء ، فلا يقيم لهم وزنا .

وكان يقول لأحدهم إذ تقدم لتمثيل دوره : « يا عدو الله ، والله ما أردت الله بهذا . ! ! »

وكان هؤلاء قلة باهتة .

أما الأكثرون ، فقد كانوا من الطراز الرفيع الباهر الذى يقول كلمته واضحة ، صادحة ، صادقة ، نافعة ، يمليها عليهم إيمانهم بواجبهم وبحقهم معا . . ويشجعهم عليها سلوك أمير المؤمنين تلقاء نُصحائه ومعارضيه . .

* * *

وعظيمٌ من عمر ، أنه كان يلتمس المشورة والرأى ، كفردٍ عادى لا كحاكم وأمير للمؤمنين . .

فهو إذ يطلب الرأى فى أمر ، لا يبدى عن أى مظهر من مظاهر السلطة . . بل يُشعر الآخرين بأنهم يُسْدون إليه خيراً جزيلا ، ويتقدونه من وطأة الحساب إذ يساعدونه بآرائهم على تبين الصواب والحق . . ! !

وبهذه الروح نفسها يتلقى كما رأينا - كل معارضة له ، بل وتنديد به . .

كان يجتاز الطريق يوماً ، ومعه « الجارود العبدى » فإذا امرأة تناديه وتقول .

- رُويدك يا عمر ، حتى أكلمك كلمات قليلة . .

ويلتفت « عمر » وراءه . ثم يقف حتى تبلغه السيدة . فتقول له وهو مُصْغٍ مبتسم :

- يا عمر : عهدى بك ، وأنت تسمى « عُميرا » تصارع الفتيان فى سوق عكاظ ، فلمْ تذهب الأيام حتى سميت « عمر » . . ثم لم تذهب الأيام حتى سميت « أمير المؤمنين » . . فاتق الله فى الرعية ، واعلم أن من خاف الموت ، خشى الفوْت . . ! !

فقال لها « الجارود العبدى » : اجترأت على أمير المؤمنين .

فجذبه عمر من يده وهو يقول : دعها فإنك لا تعرفها ، هذه « خوْلة بنت حكيم » التى سمع الله قولها من فوق سبع سماواته وهى تجادل الرسول فى زوجها وتشتكى إلى الله . فعمر والله حَرِىٌّ أن يسمع كلامها . . ! !

* * *

إن فطرة العربى ، وروح الإسلام ، أمدَّا المسلمين الأوائل لا شك بهذا الحظ العارم من الشجاعة فى مواجهة الحاكم .

ولكن لا ريب فى أن هذه الشجاعة الخارقة ما كانت ستتبع مداها الشامخ هذا ، لو لم يكن سلوك الحاكم تجاهها سلوكا نبيلا جليلا يساعد على إربائها لا إطفائها الأمر الذى كان يصنعه « عمر » . .

لقد نجت الشورى فى عهد هذا الرجل الكبير من كل ضائقة وأزمة .

ذلك أن أزمة الشورى توجد عندما يوجد الحاكم الذى يحب السُّلطة ، أكثر مما يحب الحرية . .

و« عمر » لم يفعل نقيض ذلك فحسب ، بل إنه نظر إلى السلطان كما ينظر المضطر إلى لحم الميتة . . ! !

وعلى الرغم من أنه جرَّد السلطة حين مارسها من كل زهوها ، ومن كل إغرائها ، ومن كل ضراوتها ، فقد ظل ينظر إليها نظرته تلك ، وظلت علاقته بها علاقة من حُمِل عليها ، لا من سعى إليها . .

ولقد كان دائما يعدُّ الشعب ويهيئه ليكون هو الحاكم الحقيقى ، وليكون الخليفة الحق له يوم يذهب عن هذه الدنيا .

كان كل همه أن يتركه شعبا قويًّا صلْبا ، ولقد فعل . . .

وضع فى خدمته كل دخل الدولة . وأقام من أجله الثغور ، والحصون ، وشاد له المدن والأمصار . .

ثم مع هذا ، بل قبل هذا ، وضع كلتا عينيه على القوة النفسية للشعب . تلك التى تتمثل فى شعوره الحقيقى بأنه سيِّد . . وبأنه آمِنٌ كل الأمن . . وبأنه يصنع مصيره ، ولا يُفاجأ به . . ! !

وهكذا أخضع « عمر » للشورى كل خُطة وكل قرار . . وأعطى الحق

كل توقير وكل إكبار . . ولم يجعل الشورى وقفاً على بطانة أو فريق من الناس . بل احترمها كحق مبرور للأمة كلها . ! !

ذلك أن أمير المؤمنين لم يكن رجلَ بِطانة . . بل كان رجلَ أمة ، ورجلَ عالَم ، ورجل تاريخ . . ! !

* * *

نحن أمام إنسان فيه كل أصالة نشأته ، وبيئته ، ودينه . .

رجل يعرف مكانه من الناس ، ويعرف مكان الناس منه ، ويعرف مكانه والناس معاً من تيَّار الحياة الإنسانية الهادر .

ثم هو يصير بحقائق عالَمه من غير أن يدرس هذه الحقائق فى جامعة أو فى كتاب . .

وأولى هذه الحقائق كما يعلم ، وكما عبر هو فى أعذب وأمتع وأجمع قول : « متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحراراً » . . ؟

هذه أول حقائق عالما الإنسانى ، كما يدرك « عمر » : « الحرية حق تعلنه لحظة الميلاد » . .

وهو كحاكم ، لا يخافها ، ولا يُجفل منها ، بل يحبها حب عاشق ويقدسها تقديس مؤمن . .

ومفهوم الحرية عنده فى منتهى اليسر . وأيضاً فى منتهى الشمول . فالحرية ، هى حرية الحق . . .

الحق فوق جميع القيود . .

وما دام الناس هم الذين يكتشفون الحق ، فيجب أن يكونوا أحراراً فى ممارسة كشفه . .

وما دام لا يوجد إنسان واحد يملك الحق وحده ، أو يعرفه وحده ؛ فلكل فرد إذن الحق فى أن يسلك طريقه إلى معرفة الحق . .

أى أن الناس أحرار فى أن يعلنوا آراءهم ، ويحدثوا بما فى أنفسهم فإن يك صواباً ربح المجموع هذا الصواب ، وإن يك خطأ تبيّن صاحب الخطأ خطأه . .

ولكنْ من حق « عمر » علينا أن نقول : إن هذا الحق الذى يحترم اختلاف وجهات النظر فيه هو الحق الذى لم يأت فيه من الله ولا من رسوله بيان واضح وفاصل . .

وما أكثر نماذج الحق الذى ترك الله للناس أمر كشفها ، وما أكثر الحقائق التى تتطلب آراء الناس لتظهر وتبين . . ! !

وعند « عمر » أن إبداء الرأى من حق كل فرد ، ذكر وأنثى ، كبير وصغير ، وليس من حق الصفوة . أىّ صفوة . .

ذلك لأنه ينظر حوليه ، فيرى امبراطوريات تتهدم ، وعروشاً تنهار ، وشعوباً ذليلة ، تصحو وتتحرر . .

ثم ينظر . . بيد من يتم هذا العمل الجليل . . ؟

إنه يتم بأيدى الرجال العاديين . . الأميين والفقراء والبسطاء الذين آمنوا بمحمد ، واتبعوا النور الذى أنزل معه . . هؤلاء إذن ، هم قوام الحياة الجديدة . . ! !

فإذا كنا نحترم سواعدهم التى تضرب وتبنى ؛ فلا بد أن نحترم كلمتهم التى تُقال . . وإذا كنا نتطلب تأييدهم وتعضيدهم ، فلا بد أن نتقبل مشورتهم ونقدهم . . ! !

وما داموا هم الذين يحملون العبء أولا وآخراً ، فليس من حق حاكمهم

أن ينفرد دونهم باتخاذ قراراته ورسم خُططه ، وبالتالى ليس من حقه أن يتجاهل حقهم فى أن يقولوا : لا . . ما دام يحتاج إليهم فى يوم يقولون فيه : لبيك . . ! ! !

يدور ذات يوم حوار بينه وبين واحد من الناس .

ويتمسك الآخر برأيه ، ويقول لأمير المؤمنين : اتق الله يا عمر . ! ويكررها مرات كثيرة . .

ويزجره أحد الأصحاب الجالسين قائلا : صه ، فقد أكثرت على أمير المؤمنين .

ولكن أمير المؤمنين يقول له : « دَعْه ، فلا خير فيكم إذا لم تقولوها . . ولا خير فينا إذا لم نَسمعها . . » !

أجل ، لا خير فى الناس إذا لم يقولوا ما يرونه حقًّا ، ولا خير فى الحاكم إذا لم يسمع منهم ويُصْغ إليهم . .

* * *

ولكن ليست المشكلة مشكلة قول وسمع . .

إنما هى أولا مشكلة الثقة والطمأنينة اللتين ترفعان من مستوى الشجاعة فى إبداء الرأى . . ومستوى العدالة فى تقبُّله . . .

وهذه عظمة « عمر » فى هذا المقام ، وهى كعظمته فى كل مقام . . .

عظمته فى إدراكه أن الشجاعة هى سر الحرية وجوهرها . . وأن الناس إذا فقدوا شجاعتهم ، فقدوا بالتالى كل ما يؤهلهم للاستقامة والتقدم والتطور الصاعد السديد . .

وعندئذ فالويل لهم ، والويل للحاكم معهم . .

إن الاثنين معا . الحاكم والشعب ، بتخليهما عن الشجاعة فى إبداء الرأى وتقبُّله . قد أزمعا الانسحاب من الحياة . . ! !

* * *

ألا هيئاً لأمة يقودها هذا القوى الأمين ، عمر ! . . .

هذا الرجل الذى بَرِئَ من آفة الحكم وآفة الحكام فى كل زمان - ألا وهى الحرص على أن تكون كلمتهم العليا . .

بَرِئَ « عمر » من هذا ، وتفوّق عليه . .

وكانت الكلمة العليا عنده للحق أنّى يكون .

ولقد يَقضى قضاء ، ويُبرم أمراً ، فيعارضه صاحبه ، ويقول للإمام العادل . والخليفة الأمين : ليحكم بينى وبينك آخرون . .

فلا وربك لا يألم « عمر » ولا يتأنّى ، بل يرحب فى غبطة ، لأنه سيجد عوْناً على الحق إن كان مُحقًّا ، وهُدًى إلى الصواب إن كان مخطئاً . . !

لقى العباس يوماً وقال له :

- لقد سمعت رسول الله قبل موته يريد أن يزيد فى المسجد ، وإن دارك قريبة من المسجد فأعطنا إياها نزدها فيه . وأقطع لك أوسع منها . .

قال العباس : لا أفعل . .

قال عمر : إذن أغلبك عليها . .

فأجابه العباس : ليس ذلك لك ، فاجعل بينى وبينك من يقضى بالحق .

قال أمير المؤمنين : من تختار . . ؟ ؟

قال العباس : حذيفة بن اليمان . .

وبدلا من أن يستدعى أمير المؤمنين إلى مجلسه « حذيفة » انتقل هووالعباس إليه .

أجل ، فحذيفة الآن يمثل سلطة أعلى من سلطة الخليفة نفسه . إنه سيقضى ويفصل بين الخليفة ، وواحد من المسلمين . . بين الدولة : وفرد من المواطنين . . شيء تشبهه لو استقامت على الطريقة – مجالس الدولة فى عصرنا هذا . . .

وأمام حذيفة بن اليمان جلس « عمر » ، والعباس . وقصَّا عليه الخلاف الذى بينهما .

فقال حذيفة : سمعت أن نبى الله « داود » عليه السلام أراد أن يزيد فى بيت المقدس فوجد بيتاً قريباً من المسجد ، وكان هذا البيت ليتيم ، فطلبه منه فأبى . فأراد « داود » أن يأخذه قهراً ، فأوحى الله إليه : « إنّ أنره البيُوت عن الظُّلم لَحَوبتى » فعدل داود وتركه لصاحبه . .

فنظر العباس إلى « عمر » وقال : ألا تزال تريد أن تغلبنى على دارى . ؟

قال عمر : لا . .

قال العباس : ومع هذا ، فقد أعطيتك الدار تزيدها فى مسجد رسول الله . . ! !

* * *

أغلب الظن ، أن « عمر » لو رأى انبهارنا اليوم بديمقراطيته وإنسانيته وعظمته . لرمقنا بنظرة ملؤها الدهش والعَجب . .

فهو لم يكن فى كل روائعه هذه ، يحسب أنه يأتى أموراً غير عادية ،

وهذا هو « جوهر » العظمة . .

عظمة رجل يدعو بالرحمة لمن يُهدى إليه أخطاءه . .

لمن يقول له : لا . . . يا عمر . . ! !

ألا حيًّا الله أمير المؤمنين .

وتحية طيبة للبشرية التى أنجبته ، ولدين الذى رباه . . ! ! !

الفصل الخامس

لستُ بالخِبِّ، ولا الخِبُّ يخدعني

فى مستوى فطرته ، وإيمانه ، ومسئوليته ، كان ذكاؤه وكانت فطنته .

ولقد لخصت أم المؤمنين « عائشة » رضى الله عنها حذقه الفائق فقالت :

« كان والله أحْوَذيًّا ، نسيج وحده ، قد أعدَّ للأمور أقْرانها » . .

ولقد أفاء الله عليه الكثير الغدق من الفهم والحكمة « يُؤْتِى الحكمة من يشاء ، ومَن يؤت الحكمة فقد أوتى خيرا كثيراً » .

و« عمر » أهل لفضل الله وعطائه وخيره ، فليس فى حياته كلها شىء له . إنها كلها مُكرَّسة لله . منذورة لطاعته وخدمة خلقه .

وذكاؤه سداد للحق ، لا للباطل .

وهو ينبع من مسئوليته ، ويعمل وفقها .

وهو ذكاء الفطرة السويّة ، والتجربة اليقظى ، ومن ثم فهو لا يعرف المراوغة ، ولا المُماراة . إنما يتحرَّى الحق ، وينفُذ إلى اللُّباب المستتِرّ فى مثل لمح البصر أو هو أقرب . . ! !

وحظه من فقه الإسلام خاصّة ، حظ عظيم جدّ عظيم

يقول عبد الله بن مسعود :

« كان عمر أعلمنا بكتاب الله . وأفقهنا فى دين الله »

وكان أصحابه يتحدثون بأنه ذهبَ وحده بتسعة أعشار العلم .

والحق أن توقّد ذكائه ، وخصوبة قريحته لا يخفيان فى أى تصرف من تصرفاته ، أوكلمة من كلماته . .

وكما لا يزهو « عمر » بسلطانه ، فهو لا يزهو بعبقريته . . تلك العبقرية التى لو شاء أن يخوض بها معارك الذكاء لربحها جميعا ، غير أنه لم يُعْط نعمة الذكاء كما يرى ، إلا ليبصر الحق فى ضياء هذا الذكاء ، وليتجنب به أحابيل المكر السيئ التى ينشرها دائماً أعداء الوضوح وخصوم الحق . .

كثيرا ما كان يقول رضى الله عنه :

« لستُ بالخبِّ ، ولا الخِبُّ يخدعنى » . !

وهى عبارة تصور طبيعة نوعه وذكائه .

فهو ليس ذكاء عُدوانيًّا . . ولا ذكاء مُراوغة وختْل . .

ليس ذكاء هجوم . بل . . . ولا ذكاء مقاومة . .

إنما هو ذكاء تفوّق ، يتفجر من شخصية متفوقة ، ويعمل فى خدمة مبادئ متفوقة . .

هو إذن ليس ذكاء معارك ، بل ذكاء بُطولات . . .

وليس ذكاءً مدرسيًّا ، بل ذكاء خلاّقاً مُبدع . .

وهذا أيضا من آيات هذا العقل الذى يؤمن بالنَّص ويُذعن للأثر . ثم هو مع هذا صوّال جوّال يستشرف الغيُوب ويكاد أحيانا يسبق الوحى ،

مما جعل رسول الله يقول مشيداً بهذه الفطنة الخارقة :

« إن الله جعل الحق على لسان عمر وقلبه » . .

* * *

يقول للرسول يوماً :

يا رسول الله . أليس هذا مقام إبراهيم أبينا . . ؟

يقول الرسول : نعم .

فيقول عمر : فلو اتخذتَ منه مُصلًى .

فما هي إلا أيام حتى يتنزل الوحي بالآية الكريمة : « واتخذوا من مقام إبراهيم مُصلًى » .

ومثل هذه الواقعة كثير ، حيث كانت تنبثق من عقله المضيء ، وبصيرته الذكية فكرة ، أو أمنية ، فيتنزل بها الوحي بعد قليل .

من أجل هذا قال الرسول فيه :

« لو كان بعدي مُحدَّثون ، لكان عمر . . .

ومن أجل هذا جعله الرسول مصدراً من مصادر التشريع حين قال لأصحابه :

« إني لا أدري ما مقامي فيكم ، فاقتدوا بالذين من بعدي ، أبي بكر وعمر » . .

وذكاء « عمر » عميق وسع . وبطرفه الحصيفة تُجلِّي كل غامض ، وتنفذ إلى كل غوْر بعيد . .

ورأيه في شيء يسير ، كرأيه في أمر خطير كلماتٌ وجيزة . وأحكام مستوعبة . .

وله فقه عظيم بطبائع الناس . . . كفقهه العظيم بأحداث الدنيا وأسرار الحياة . . ! ! !

* * *

كان يقول : « الناس بزمانهم ، أشبهُ منهم بآبائهم »

ويقول : « ما من أحد عنده نعمة ، إلا وجدت لها حاسداً . . ولوكان المرء أقوم من القدح . لوجدت له غامزاً » . . ! !

أحكام وجيزة ، لكنها عميقة ، تتركز فيها حكمة « عمر » وعبقريته ، وخبرته العميقة بنفس الإنسان .

وإنه ليَضع الناس فى ميزان ذكى قويم فيقول :

« أحبكم إلينا قبل أن نراكم أحسنكم سيرة ، فإذا تكلمتم فأبينكم منطقاً ، فإذااختبرناكم فأحسنكم فعلا » . .

والمظاهر العابرة ، لا تكفى عنده لتكوين أحكام عن الآخرين .

يسمع واحداً يُطرى آخر ويمتدحه قائلا ، إنه رجلٌ صدق

فيسأله عمر : هل سافرت معه يوما . . ؟

يقول الرجل : لا

هل كانت بينكما خصومة يوماً . . ؟

لا . .

هل ائتمنته يوماً على شىء . . ؟

لا . .

فيقول عمر : « إذن لا علم لك به . لعلك رأيته يرفع رأسه فى المسجد ويخفضه » . . ! ! !

هذا إمام من أئمة التقى والورع والهدى ، ثم لا يرى رفع الرأس وخفضه فى المسجد كافياً للثقة بمن يفعل هذا ، ، لا تهويناً لشأن العبادة ، ولكن إحاطة بأسرار النفس الإنسانية وحسنَ فهم لتياراتها الخافية

إن ذكاء « عمر » لا يأتى الأمور من بعض زواياها . إنما يكشفها جميعاً ، ويستوعبها حتى آخر نماذجها واحتمالاتها . .

فهو فى معرفته بالناس . لا يكتفى بتمحيص جانب العباده فيهم ، على الرغم من علو مكانة العبادة والعابدين عند « عمر » ، إنما يُطل على الشخصية كلها ، لأن العبادة أيضاً فى مفهومها السديد عند « عمر » ، تعنى استواء الشخصية الإنسانية واكتمالها . .

من أجل هذا ، كان يشكو كثيرا من سذاجة التقىّ ، ومقدرة غير التقى . .

وما كان يرى السذاجة والغفلة من خصائص العبادة والتقوى . بل التقوى عنده قوة وطهر . وسعة حيلة ، وتفوُّق . .

والحياة لديه ليست غفلة صالحة . بل هى تجربة ناجحة ، ومِراس أمين .

تحدث الناس عنده يوما عن رجل وذكروه بخير فقالوا : إنه لا يعرف الشر أبداً . .

فقال « عمر » ذاك أحدر أن يقع فيه . .

ليس معنى هذا طبعاً أن ارتكاب الشر ضرورى لمعرفته ، إنما معناه أن يكون الإنسان بصيراً بالشرور حتى لا تغزوه متكرة فى ثياب الخير . .

ويدرك « عمر » كذلك بفطنته المتألقة أن الفضيلة ليست انسحابا من الحياة حَذَرَ الفتنة ، بل هى مجابهة الحياة ومُغالبة الفتنة .

وفى هذا يُسأل : أيهما أزكى وأفضل – رجل لا يأثم لأن نفسه لا تشتهى

الإثم ، أم رجل تشتهى نفسه الإثم ولا يأثم . .

فيجيب « عمر » الحصيف الألمعى : « الذين يشتهون المعصية ، ولا يعملون بها . أولئك الذين امتحن الله قلوبهم للتقوى ، لهم مغفرة ؟ وأجرٌ عظيم . . . ! !

* * *

وتتراحب أبعاد هذا الذكاء وهذا الفقه ، حين يواجهان مشاكل الحياة والناس .

تُعرض عليه قضية يُفتى فيها . . وبعد حين ، تعرض عليه قضية مماثلة لتلك ، فيفتى فيها فتوى مغايرة . . فإذا سئل عن سر هذا التفاوت قال : ذاك على ماقضينا ، وهذا على ما نقضى .

إن ظروف القضيتين مختلفة ، وإن تماثلت الوقائع .

وعمر الفقيه العبقرى ، لا يحمل داخل عقله فتاوى كالقوالب الجامدة . إنما يحمل فهما يتحرك فى كل الجهات . ويدرك ما لتباين الظروف وتغاير الأسباب من تأثير فى الحادثة ، وتأثير فى الحكم . .

ولا شىء يفوق ذكاء « عمر » ، سوى جرأة هذا الذكاء . . ! !

فتراه وهو الذى كان يتحرّى التزام النّص ، ومتابعة الرسول عليه السلام . يعلن إنهاء حكم شرعى ، مات الرسول وهو نافذ قائم ، ومات أبو بكر وهو نافذ قائم ، ولا يزال منطوق هذا الحكم آية تُتلى فى كتاب الله . . . ! !

هذا الحكم ، هو تخصيص جزء من ضريبة الزكاة للمؤلّفة قلوبهم

والمؤلّفة قلوبهم جماعة دخلوا الإسلام باقتناع ضعيف ، أو بغير اقتناع . فرض القرآن لهم فى بيت المال حظّاً يأخذونه من الزكاة . تألّفاً لهم ، حتى

لا ينصرفوا عن الدين قبل أن يذوقوا حلاوة الإيمان فيقفوا عليه وعين موقنين

قلب عمر وجوه الرأى فى هذا الشأن ثم قال :

« لقد كان رسول الله يعطيهم ، والإسلام يومئذ ضعيف . أمّا اليوم فقد أعزّ الله دينه وأعلى كلمته ، فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر ، ولن يتسع هذا الدين إلا لمن يدخله وهو مؤمن » .

إن هذا الموقف وحده يرتفع إلى أعلى مستويات الذكاء الإنسانى ليس لما يتضمن من حسن التعليل ، بل لما يتضمن من شجاعة التفكير . فكثيرون يستطيعون أن يدركوا ما أدرك « عمر » من حكمة التشريع فى مثل هذه الواقعة ، لكن عمر وحده هو الذى يستطيع ذكاؤه لحسم أن يطوّر هذا التشريع . لا سيما إذ كان مقرراً بآية قرآنية لم تُنسخ وعمل للرسول لم يُنقض .

لحق أن أعمق رُؤى البصيرة ، وأعمق أسرار الشريعة ، قد التقتْ لقاء سعيداً فى وَعْى هذا الرجل الراشد الأمين !

ولقد أشاد الرسول بهذه النعمة التى أفاءها الله على « عمر » فيروى البخارى ومسلم رضى الله عنهما ، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال :

« بينا أنا نائم ، إذ رأيت قدحاً أُتيتُ به فيه لبن ، فشربت منه حتى إنى لأرى الرِّىَّ يجرى فى أظفارى ، ثم أعطيتُ فضلى عمر بن الخطاب » قال أصحاب الرسول ، فما أوّلتَه يا رسول الله ؟ قال « العلم » .

* * *

يُجاء إليه بمسلم ارتكب ما يوجب الحدّ ، ويشهد ثلاثةٌ شهادة تدينه ، ولم يبق إلا شهادة الرابع ، ثم يصير الحد عقاباً محتوماً .

ويُرسل « عمر » يستدعى الشاهد . . ولا يكاد يراه مقبلا حتى تأخذه رهبة . . وحين تقترب خطاه ، ينظر إليه أمير المؤمنين ويقول : أرى رجلا أرجو ألاّ يفضح الله به واحداً من المسلمين . . .

ويقدم الشاهد ، ويقول : لم أر شيئاً يوجب الحد .

ويتنفس « عمر » الصّعَداء . . ! !

ويأتيه رجل يسعى ذات يوم ظانّاً أنه يحمل إليه بشرى . فيقول يا أمير المؤمنين ، رأيت فلاناً وفلانة يتعانقان وراء النخيل ، فيمسك « عمر » بتلابيبه ، ويعلوه بمحفقته ، ويقول له بعد أن يُوسعه ضرباً : « هلاّ سترت عليه ، ورجوت له التوبة ، فإن رسول الله قال : من ستر على أخيه ستره الله فى الدنيا والآخرة . ! !

هذا رجل معه من الورع ما يستهجن به الخطأ الأخلاقى ، ولكن معه من الفطنة ما يُقدّر به ظروف هذا الخطأ ، ومعه من الفقه ما يؤدى به حق الورع وحق الفطنة معاً . ! ! !

وإنه ليوصى الناس بهذا الفقه العظيم فيقول :

– « هكذا فاصنعوا . . إذ رأيتم أخاً لكم زلّ زلّة فسدّدوه ووفّقوه ، وادعوا الله أن يتوب عليه ، ولا تكونوا عوناً عليه للشيطان » . .

إن أمير المؤمنين شديد الوطأة ، شديد البأس ، ولكن الفهم السديد يضئ كل مواقفه ، وهو يقضى بذكائه لا بعواطفه . . فصحيح أنه ينفر من الإثم ، ولكنه يُمحص ظروف اجترحه تمحيص خبير ، ويضع القاعدة الذهبية التى تقول :

لأنْ أعطل الحدود فى الشُّبهات ، خير من أن أقيمها فى الشبهات !

يأتيه يوماً رجل يستفتيه قائلا :

– إن ابنتي كانت قد أصابت حدًّا من حدود الله ، وأخذت الشفرة لتذبح نفسها ، فأدركناها وقد قطعت بعض أوداجها فداويناها حتى برئت ، ثم تابت بعدُ توبة حسنة ، وهي اليوم تخطب إلى قوم ، أفأخبرهم بالذي كان ... ؟

فيجيبه عمر ذو الورع الذكي ، والذكاء الورع :

– أتعمد إلى ما ستره الله فتبديه ؟ والله لئن أخبرت بها أحداً من الناس لأحبسنك نكالا لأهل الأمصار ، اذهب وأنكحها نكاح العفيفة المسلمة » ... ! !

* * *

وأمير المؤمنين لا يكوّن أحكاماً جزئية مُتسَرعة ، بل تجيء أحكامه دائماً شاملة مستوعبة ، ولا يصرف بصيرته عن الواقع ، بل يركزها عليه ، ويحيط به ، ويجعله من مصادر تفكيره الرشيد .

في إحدى الليالي ، وقد خرج عسَّاساً في المدينة ، ينفض الليل عن الكروب المحزونة ، سمع سيدة تشكو بثَّها وحُزنها وتقول :

تطاول هذا الليل ، وازورَّ جانبه ... وليس إلى جنبي خليلٌ ألاعبه
فوالله لولا الله لا رب غيره ... لزلزل من هذا السرير جوانبه
مخافة ربي ، وانحياء يصدّني ... وأكرم بعلي أن تُنال مراكبه

ثم قالت : أهكذا يهول على عمر وحشتك ، وغيبة رجلك عنك ... ؟

ويتبين عمر أن زوجها مجند في أحد جيوشه ..

وعند الصباح يذهب إلى ابنته حفصة ويسألها :

يا حفصة ... كم تصبر المرأة عن زوجها ... ؟ !

فتحيه : تصبر شهرا ، وشهرين ، وثلاثة . وينفد مع الشهر الرابع صبرها .

فيسنّ من فوره قانوناً ، بألا يغيب فى الجهاد جندى متزوج أكثر من أربعة أشهر . . ويرسل إلى زوج السيدة يستدعيه من فوره . . ! !

« ويسمع شيخاً كبيراً يبكى فى شعر جزْل ولَده الوحيد الذى طال عياله عنه . . ويسأل « عمر » فيعلم أنه هو الآخر فى أحد جيوش المسلمين ، فيستدعيه فورا ثم يسن قانوناً ألا يخرج إلى الجهاد من له أبوان كبيران إلا بعد إذنهما . . ! !

ذكاء يعمل على الطبيعة ، ويستمد من واقع الناس والحياة مادة تفكيره .

« ولقد درج العرف والقانون على عتبار الاعتراف سيد الأدلة . وهذا حق ، ولكن أمير المؤمنين يقرر بفطنته أنه ليس كذلك دائماً . ولا بد لكى يؤخذ الاعتراف كدليل ، ألاّ يُعْزل عن الظروف التى تكتنفه وتحيط به ، فلربما جيء نتيجة خوف أو إكراه ، وعندئذ يفقد قيمته

يقول عمر :

— « ليس الرجل بمأمون على نفسه إن أَجَعْتَه أو أخَفْتَه ، أو حَبَسْتَه أن يُقِر على نفسه . . . ! !

« وهو يأمر قواد جيوشه ألا يُنزلوا بجندى عقاباً حتى يَطْلعوا من الدَّرْب قافلين . . ! !

إذا ارتكب جندى خطأ ما ، فلتحقق الواقعة ، ولتحدد المسئولية ، ولكنّ توقيع الجزاء والعقوبة ، يظل مُرجأً حتى يُغادر الجندى بلاد الأعداء . ويعود إلى وطنه .

ويعلل أمير المؤمنين قراره هذا ، بالخوف من أن يلحق الجندى بالأعداء ويأوى إلى صفوفهم إذا أنزل به العقاب هناك . . ! !

إن ذكاءه التشريعى يتجلى فى هذه الوقائع اليسيرة التى ذكرناها تجلياً يكشف عن روح الفهم النافذ والاستعداد العظيم عند ذلك الرجل الملهم الرشيد .

• وإنه ليجاء إليه يوماً بغلمان صغار السن سرقوا ناقة رجل من مُزينة . . ؟ فلا يكاد يراهم صفر الوجوه ، ضامرى الأجسام حتى يسأل : مَن سيِّد هؤلاء . . ؟

قالوا : حاطب بن أبى بلتعة . .

قال : إلىَّ به . .

فلما جاء حاطب ، سأله : أنت سيد هؤلاء . .

قال : نعم يا أمير المؤمنين .

قال عمر : لقد كدت أنزل بهم العقاب ، لولا ما أعلمه من أنكم تدئبونهم ، وتجيعونهم لقد جاعوا فسرقوا ، ولن ينزل العقاب إلا بك . . ! !

ثم سأل صاحب الناقة :

- يا مُزنى ، كم تساوى ناقتك . . ؟ ؟

قال : أربعمائة . .

قال عمر لحاطب : اذهب فأعطه ثمانمائة . .

ثم قال للغلمان : اذهبوا ، ولا تعودوا لمثلها . . ! !

• • •

وحين نتبع أفكار « عمر » فى كلماته التى يصوغها فى أحسن تقويم ،

نرى الجزالة ، والوضوح ، والمعانى الكبيرة ، والأهداف النبيلة . تلتقى لقاء سعيداً فى كل كلمة تنفرح عنها شفتاه . .

حين ولى الخلافة وقف يقول لقومه :

— « لن يغير الذى وُلِيتُ من خلافتكم شيئاً من خُلُقى ، إنما العظمة لله وحده ، وليس للعباد منها شىء » . ! ! !

ويحدثهم عن المال فيقول :

« ألا إنى ما وجدت صلاح هذا المال إلا بثلاث : أن يؤخذ من حق ، ويعطى فى حق ، ويُمنع من باطل . . . ألا وإنما أنا فى مالكم هذا كوالى اليتيم : إن استغنيتُ استعففت . . وإن افتقرتُ أكلت بالمعروف » .

ويقول فى كلمات وصاه عِذاب :

« من أراد أن يسأل عن القرآن . فليأت أُبَىَّ بن كعب . . ومن أراد أن يسأل عن الفرائض . فليأت زيد بن ثابت . . ومن أراد أن يسأل عن الفقه ، فليأت معاذ بن جبل . . ومن أراد أن يسأل عن المال فليأتنى ؟ فإن الله جعلنى له خازناً وقاسماً . .

« إنى بادئ بأزواج رسول الله فمعطيهن . ثم المهاجرين الأولين الذين أخرجوا من ديارهم وأموالهم ، ثم الأنصار الذين تبوءوا الدار والإيمان من قبلهم ، ثم من أسرع إلى الهجرة أسرع إليه العطاء ، ومن أبطأ عن الهجرة أبطأ عنه العطاء ، فلا يلومَن رجل إلا مُناخَ راحلته » . ! !

ويقول فى توزيع الثروة :

— « إنى حريص على ألا أدَع حاجة إلا سددتها ما اتسع بعضنا لبعض ، فإذا عجزنا تآسينا فى عيشنا حتى نستوى فى الكفاف » . . . ! !

* * *

وحين نستعرض كتبه لقواده وولاته نرى كيف كان ذكاؤه يبلغ غاية الرُّشد فى كل شأن من الشئون . .

يكتب لأبى موسى الأشعرى موضحاً له منهج القضاء الذى ينبغى أن ينتهجه فيقول :

« من عبد الله أمير المؤمنين ، إلى عبد الله بن قيس . سلام عليك . .

« أما بعد : فإن القضاء فريضة محكمة ، وسنة متبعة ، فافهم إذا أُدْلِى إليك ، وأنفذ إذا تبيَّن لك ، فإنه لا ينفع حق لا نفاذ له . .

« آسِ بين الناس فى مجلسك ووجهك ، حتى لا يطمع شريف فى حَيْفك ، ولا ييأس ضعيف من عدلك . .

« البينة على من ادَّعى ، واليمين على من أنكر . .

« والصلح جائز بين المسلمين إلا صلحاً أحلَّ حراماً أو حرَّم حلالا . .

« ولا يمنعك قضاء قضيته بالأمس ، فراجعت فيه نفسك وهُديت لرشدك أن ترجع إلى الحق : فإن الحق قديم لا يبطله شىء . ومراجعة الحق خير لك من التمادى فى الباطل . .

« الفهمَ ، الفهم فيما تلجلج فى صدرك مما ليس فى كتاب ولا فى سنة ، واعرف الأشباه والأمثال ، ثم قِس الأمور عند ذلك ، واعمَد إلى أحبها إلى الله ، وأشبهها بالحق فيما ترى . . . واجعل لمن ادَّعى حقًّا غائباً أو بينة ، أمدا ينتهى إليه ، فإن أحضر بينته أخذت له بحقه وإلا استحللت عليه القضاء ، فإن ذلك أنفى للشك . وأجْلَى للعمى : وأبلغ فى العذر . .

« والمسلمون عدول فى الشهادة بعضهم على بعض ، إلا مجلوداً فى حدّ ، أو مجرّباً عليه شهادة زور ، أو ظنينا فى ولاء أو قرابة ، فإن الله قد تولَّى منكم السرائر ، ودَرأ عنكم الشبهات . .

« وإياك والقلق ، والضجر ، والتأذّى بالناس والتنكر للخصوم فى مواطن الحق التى يوجب الله بها الأجر ، ويُحسن الذُّخر فإنه من يُخلص نيته فيما بينه وبين الله تبارك وتعالى ، يكْفِه الله ما بينه وبين الناس ، ومن تزيَّن للناس فيما يعلم الله خلافه منه ، شانه الله وهَتك ستره وأبدى فعله ، فما طلك بثواب عند الله فى عاجل رزقه ، وخزائن رحمته ؟ والسلام ، . . ! ! !

° ° °

ويدخل عليه وفد من المجاهدين كانوا يفتحون تكريت وجلولاء ، فيرى جسومهم ضامرة ووجوههم شاحبة ، فيسألهم عن سبب ضعفهم فيجيبونه بأنها وخُومة البلاد ورطوبتها . .

فيكتب لسعد يأمره أن يحسن اختيار مكان يلائم الناس ، ويرسم له الطريق فيقول :

« ابعث سلمان رائدا ، وحذيفة ، فليرتادا منزلا ليس بينى وبينكم فيه بحر ولا جسر ، وادع أبا الهياج بن مالك ، وأمره أن يجعلها مناهج - يعنى شوارع - عرض كل منهما أربعون ذراعاً . . وأخرى عرض كل منها ثلاثون ذراعا . . وأخرى عرض كل منها عشرون ذراعاً ، لا تضيق عن ذلك شيئا . وأمره أن يجعل فيها أَزِقَّة ، الزقاق سبعة أذرع ، لا يضيق عنها شيئا » . . !

° ° °

ويكتب لسعد أيضاً ببعض توجيهاته العسكرية فيقول :

« ترفَّق بالمسلمين فى مسيرهم ، ولا تجشمهم مسيرا يتعبهم ، ولا تقصر بهم عن منزل رفق ، حتى يبلغوا عدوهم والسفر لم ينقص قوتهم . . وأقم

بمن معك فى كل جمعة يوماً وليلة حتى تكون لهم راحة يُجِمُّون فيها أنفسهم ويرمون أسلحتهم وأمتعتهم . .

ثم يقول :

« وإذا وطئت أدنى أرض العدو فأذْكِ العيون بينك وبينهم ، حتى لا يخفى عليك أمرهم ، واختر لهذا من تطمئن إلى نصحه وصدقه ؛ فإن الكذوب لا ينفعك خبره وإن صدق فى بعضه ، والغاشّ عين عليك وليس عيناً لك . .

« وإذا دَنَوت من أرض العدو ، فأكثر الطلائع ، وبثَّ السرايا . أما السرايا فتقطع أمدادهم ومرافقهم . وأما الطلائع ، فتلو أخبارهم ، وانتق للطلائع أهل الرأى والبأس من أصحابك . وتخير لهم سوابق الخيل ؛ فإن لقُوا عدوًّا كان أول ما تلقاهم القوة من رأيك ، واجعل أمر السرايا إلى أهل الجهاد والصبر على الجلاد ، ولا تخصَّ أحدا بهوى فيضيع من رأيك وأمرك أكثر مما تحابى به أهل خاصتك ، ولا تبعث طليعة ولا سريّة فى وجه تتخوف فيه ضيعة ونكاية ، فإذا عاينت العدو ، فاضمُم إليك أقاصيك وطلائعك وسراياك » . . ! ! !

* * *

ويكتب إليه أيضا :

– « بلغنى أنه قشا لك ولأهل بيتك هيئة فى لباسك ومطعمك ومركبك ليس للمسلمين مثلها ، فإياك يا عبد الله أن تكون بمنزلة البهيمة التى مرت بواد خصيب فلم يكن لها هم إلا السِّمَن ، وإنما حتْفُها فى السمن . . ! واعلم أن للعامل مردًّا إلى الله ، فإذا راغ زاغت رعيته ، وإن أشقى الناس

من شقيت به رعيته « . . . ! !

فى هذه الرسائل أدلى « عمر » برأيه فى مشاكل شتى ، فى القضاء ، وفى العمارة ، وفى الجهاد ، وفى أمانة الحكم . .

وفيها ، وبين سطورها تتألق بديهته ، ونبوغه . .

* * *

وحتى حين كان يعبر عن أفكاره فى تبسُّط ودعابة ، كانت الحكمة الذكية تملؤ الكلمات والحروف . .

يمر يوماً بدار جديدة فى أطراف المدينة ، فيسأل : دارُ من هذه ؟

فيقولون : دار فلان . وفلان هذا واحد من ولاة عمر . .

فيقول : أبت الدراهم إلا أن تخرج أعناقها . . ! !

ويبصر يوماً نائحة تستجيش أحزان الناس وتمسح دموعها الكواذب فيعلوها بمخفقته . ويطردها ويقول : « إنها لا تبكى بشجونكم ، إنما تبكى بدراهمكم . . ! ! »

ويسأل أحد أولاد « هرم بن سنان » . الذى خلده بشعره ، « زهير ابن أبى سلمى » ، فيقول له أنشدنى بعض مَدح زُهيرٍ أباك . فينشده . .

فيقول عمر إنْ كان ليحسن فيكم القول . .

فيجيبه الرجل : ونحن والله . إنْ كُنَّا لَنحسن له العطاء . . .

فيقول عمر : قد ذهب ما أعطيتموه . . وبقى ما أعطاكم . . ! !

ذكاء ثاقب – يعبر عن نفسه بكلمات ثاقبة . . ! ! !

* * *

وبعد ، فالذكاء البشرى يقترن غالباً بالطموح الشديد ، والسعى الدائب وراء المزيد من أمجاد الدنيا والعلوِّ فيها . .

وهنا نلتقى بأبهى خصائص ذكاء ابن الخطاب . .

لقد كان ذكاء رُهابيًّا ، لا يعمل فى خدمة صاحبه ، وإنما يعمل لله ، ومع الله ، فى سبيل الحق والخير والرحمة . . ! !

أجل ، كان ذكاء رجل أوَّاب . . من الله مأتاه . . وإلى الله مردّه . . وفى سبيل الله نشاطه ، وتوقُّده ، ورُؤاه . . ! !

الفصل السادس

بَشِّرْ صَاحِبَكَ بِغُلَامٍ

إذا اجتمعت هذه الفطرة السوية القوية ، وهذا الإيمان الوثيق بالله ، وهذه الأمانة الكاملة فى تحمل مسئوليات الوجود والحياة ، مع ذكاء ثاقب رَحْب ، فماذا يبقى من المكرُمَات والعظائم ، حتى يكون الكمال الإنسانى قد تجسّد بشراً ، ونهض على ساقَيْن . . ؟ ؟ ! !

هذا العدل ، وهذا الورع ، وهذا التفانى فى الواجب ، وهذه الاستقامة على صراط الحق ، والفِطنة التى لا يخدعها خِبٌ . .

تلك الخصائص المثلى لم يأخذ « عمر » منها حظًّا مجرد حظ ، بل بلغ نهاياتها ، وتفوق على مستوياتها القياسية جميعاً . .

أجل ، إن الكمال الإنسانى حين أراد أن يحقق وجوده المادى المحسوس ، تجسد فى نماذج نادرة وباهرة من البَشَر . وإن أحد هذه النماذج العليا ، لهو « عمر بن الخطاب » . . .

رجل كما رأينا ، عظيم . تتمنى العظَمة نفسُها أن تكون إحدى صفاته وسماته . . ! !

على أن الصورة التى يتملأها له عبْر هذه الصفحات لم تستكمل بعد ملامحها ، فلا يزال هناك ملْمح باهر مشرق أخاذ . .

صحيح أنه ماثل فى كل الملامح السالفة ، ولكنه بالنسبة إلينا ، نحن الذين نقسم الموضوع لنحسن فهمه ولنطيق استشراف هذه العظمة السامقة رويدا . لا يزال أمامنا هذا الملمح المطِلُّ ، يجذبنا ويدعونا . .

فالرجل الذى وزّنه الله ملك كسرى وقيصر ، والرجل الذى كان صحابه يرقبون ابتساماته ترقّب الأهلّة من طول كظمه شفتيه خوفا من الله ، ووقاراً له ، وفَرقاً من مسئولياته أن يَزِلّ فيها ، أو يَنُوء بها . .

الرجل الذى خُلق ليقود عالما ، والذى رُزق طبيعة تقتلها الراحة ، ويُغريها العمل بالعمل . .

هذا الرجل الشاهق ، الهادر ، الجياش ، كيف كان نهج حياته تحت وطأة مسئولياته ، وإخفاته . وجيشان فطرته وطاقته . . . ؟

هل عقّدته خصائصه هذه ، أم زادته وضوحا . . ؟

هل اضطرته إلى الانطواء والتزمُّت ، أم مكّنته من المجاوزة ومنحته التفتّح . . ؟ ؟

هناك قدر من التحفظ ، والصَّلف ، تحمى به الرعامة المنتصرة نفسها ، وتصون به هيبتها ، فهل أخذ « عمر » حظه المألوف من هذا ، أم كان عنده بديل آخر دعم زعامته ، وإمامته ، وهيبته . ؟ ؟

أجل ، كان هناك بديل يليق « بعمر » ، ولا يقدر عليه إلا واحد من طراز عمر . .

كان هناك البساطة . . ! !

ولكننا نظلم البساطة عند « عمر » ، إذا قلنا إنها كانت بديلا لشىء آخر .

فليس فى أخلاق « عمر » ولا فى خصائصه ما هو بديل . إنما هى جميعا ذواتُ أصالة مطلقة . و« عمر » نفسه ، هو وطنها وجوهرها . . .

أجل ، إن الشجاعة ، وإن العدل ، وإن الورع ، والاستقامة ، كلها أخلاق إنسانية يحمل أمانتها بنو الإنسان ، وتوجد بنسب متفاوتة مع الناس جميعاً ولكن شجاعة « عمر » . وعدله ، وورعه ، واستقامته ، شىء نابع من « عمر » ، ومختص به . . وما كان سيوجد قط ، لو لم يوجد « عمر » . . ! !

لقد أدت خصائص « عمر » بمعونته دورها الفريد الفذّ الذى جعلها متميزة كأنها من جوهر آخر فريد . هو « عمر » نفسه . .

وهذه عظمة الرجل . . إنه لم يأخذ من الفضيلة سِماها وطابعها ، بل هو الذى منح الفضيله طابعه وسِماه . . ! !

من أجل هذا ازدهرت الفضائل فى نفسه وسلوكه ، ازدهار شخصيته . .

واكتملت لديه الفضائل جميعاً واتحدت فى كل واحد ، هو « عمر » . .

وإذا كنا نُجزّئها ونقول ، عدل « عمر » ، ورع « عمر » ، أمانة « عمر » ، فطنة « عمر » ، « قوة عمر » . . فإنما نفعل هذا لنعلّم أنفسنا . .

أجل : إننا نُقسِّم طريقنا لنقدر على استيعابه ، ونقسم المادة التى بين أيدينا لنتمكن من تحصيلها . .

أما فضائل أمير المؤمنين ، فلا تتجزأ فى مجال العمل . كما لا تتجزأ فى ميزان التقييم . . ذلك لأنها ليست أوسمة منوطة بصاحبها . . بل هى صاحبها نفسه ، وهى الرجل الذى تنبع منه وتنتمى إليـــه . . هى ، « عمر » . . ! !

* * *

ورجل هذا شأنه ، رجل متربع بالعظمة وبالتفوق إلى هذا الحد لا يمكن أن يستهويه التمايز ، ولا يمكن أن يجد راحة نفسه وغبطتها إلا فى البساطة المتناهية ، وفى الحياة « بين » الناس لا « فوق » الناس . .

فهو يجلس حيث انتهى به المجلس . ليس له مكان صدارة يختص به نفسه . وهو ينام حيث يدركه النوم ، فوق الحصير فى داره ، أو فوق الرمال تحت ظل النخيل . . ! ! وهو يأكل ما يجد ، وما يُقيم الأَوَد لا غير . . شريحة من اللحم المقدد ، أو شريحة من الخبز مبللة بالزيت ، مُتبّلة بالملح . . ! !

وهو سعيد ، حين يسمع امرأة ، أو غلاماً . يناديه : يا عمر . .

وهو فى سعادة لو علمها ملوك الأرض لَحسدوه عليها ، حين يرى عجوزاً تحمل مكْتلا يؤودها حمله . فيتقدم منها ويحمله عنها بعض الطريق ، ويضحك ملء نفسه ، وهو يسمعها : تقول له شاكرة :

أثابك الله الخير يا بنى . . إنك لأحقُّ بالخلافة من عمر . . ! ! !

* * *

ذات ليلة خرج فى جولة من جولاته التى كان يخرج فيها وحيداً ، والناس نيام ليطمئن على قومه ويتْلُو أحوالهم ، وينفُض الليل عن حاجاتهم . . !

وعند مَشارف المدينة رأى كوخاً ، ينبعث منه أنين امرأة ، فاقترب يسعى ، ورأى رجلا يجلس بباب الكوخ ، وعلم منه أنه زوج السيدة التى تئن . وعلم أنها تعانى كرْب المخاض ، وليس معها أحد يُعينها ؛ لأن الرجل وزوجته من البادية وقد حطَّ رِحالهما هنا وحيدين ، غريبين . .

ورجع « عمر » إلى بيته مسرعاً ، وقال لزوجته « أم كلثوم » بنت الإمام على . .

– هل لك فى مثُوبة ساقها الله إليك . . ؟ ؟

– قلت : خيراً . . ؟

قال : امرأة غريبة تَمخَض ، وليس معها أحد .

قالت : نعَم ، إن شئت . .

وقام فأعد من الزاد والماعون ما تحتاج إليه الوالدة من دقيق وسمن ، ومزَق ثياب يُلَفُّ فيها الوليد . .

وحمل أمير المؤمنين القِدْر على كتف ، والدقيق على كتف ، وقال لزوجته : اتبعينى . .

ويأتيان الكوخ ، وتدخله « أم كلثوم » زوج أمير المؤمنين ، لتساعد المرأة فى مُخاضها . .

أما أمير المؤمنين ، فيجلس خارج الكوخ ويصب الأثافِىَّ ويضع فوقها القدر ، ويوقد تحتها النار . ويُنضج للوالدة طعاماً ، والزوج يَرمُقه شاكراً . . . ولعلَّه كان يحدث نفسه هو الآخر بأن هذا العربى الطيب أولى بالخلافة من « عمر » . . ! !

وفجأة صَدَح فى الكوخ صراخ الوليد . . لقد وضعته أمه بسلام ، وإذا صوت « أم كلثوم » ينطلق من داخل الكوخ عاليا :

– يا أمير المؤمنين ، بَشِّر صاحبك بعلام . . ! !

ويفهق الأعرابى من الدهش ، ويستأخر بعيداً على استحياء ، ويحاول أن ينطق الكلمتين أمير المؤمنين – ولكن شفتيه لا تقويان على الحركة من فرط ما أفاءته المفاجأة من سعادة ، وطرافة ، وذهول . . ! !

ويلحظ « عمر » كل هذا ، فيشير للرجل : أن ابق مكانك ، لا تُرَعْ . . ويحمل أمير المؤمنين القِدر . ويقترب من باب الكوخ منادياً زوجته . .

- خذى القدر يا أم كلثوم . وأطعمى الأم وأشبعيها . .

وتُطعمها « أم كلثوم » حتى تشبع ، وترد القدر إلى « عمر » بما بقى من طعام ، فيضعها « عمر » بين يدى الأعرابى . ويقول له :

- كل واشبع ، فإنك قد سهرت طويلا ، وعانيت كثيراً . . .

ثم ينصرف هو وزوجته ، بعد أن يقول للرجل :

« إذا كان صباح الغد فائتنى بالمدينة ، لآمر لك من بيت المال بما يصلحك ، ولنفرضَ للوليد حقه » . . ! !

رضى الله عن « عمر » ، وإنه لَحقٌّ ، ما قاله الرسول عنه : « لم أرَ عبقريًّا يَفرِى فَرِيَّه » ، فهو بألمعيته وبصيرته . قد عرف حقيقة السعادة ، وحقيقة العظمة فى دنيانا هذه ، فأخذ منهما بالمكيال الأوفى .

ألا وَربِّ « عمر » . إن مشهداً واحداً كهذا الذى رأيناه لخير مما طلَعت عليه الشمس وغرَبت - من عُروش وتيجان ، وزُخرف وصَلف . . . ! !

أى تواضع وأية بساطة ، وأى حنان ومودة تنساب من نفس هذا الإنسان الذى رفع الله به من قدْر الحياة . . ؟ !

أين مظاهر السلطان ، حتى المشروع والضرورى منها . . ؟ !

لكن « عمر » لم يكن رجلَ سلطان ، لأنه فوق السلطان . وهو لا يستعير عظمته من شىء خارج نفسه . إنما يَهبُ العظمة لكل ما يقترب منه ويتصل به .

وهو لا يتكلف البساطة ، بل يتنفسها . . ويُوَطِّئ أكنافه فى غبطة للكبير والصغير . . ! !

يمر يوماً فى المدينة بغلمان يلتقطون البلح من أفنية النخل ، فلا يكاد الغلمان يبصرونه حتى يتفرقوا ، ويذهبوا بعيداً ، غير غلام واحد ظل فى مكانه لا يَريم . .

ويقترب منه « عمر » ، فيباكِرُه الغلام القول :

— « يا أمير المؤمنين ، إن هذا البلح مما ألقته الريح » . . ! !

فيقول له عمر : « أرِنى أنظُرْ إليه . فإن ما تلقيه الريح لا يخفَى علىَّ » وينظر البلح ويفحصه ثم يقول للغلام : صدقت . .

وتتهلل أسارير الطفل ، ويقول لأمير المؤمنين فى براءة ،

— « أترى هؤلاء الغلمان الذين هناك ؟ ؟ إنهم ينتظرون أن أذهب وحدى فيغيروا علىَّ ويأخذوا ما معى » . .

ويضحك عمر . ويُرَبِّتُ على كتفه ، ويقول للغلام : امض معى ، وسأبلغك مأمَنَك . . ويأخذ بيده ويسير إلى جانبه حتى يُشارف داره . . . ! ! !

* * *

أكانت بساطته تنبع من مسئوليته ، أم نبعت كل خصائصه المتفوقة من عظمة نفسه . . ؟ ؟

ألاَ من شاء أن يرى ما يسُرُّ الأعين ، ويجعل الأفئدة فى عيد . .

ألا من شاء أن يرى العظمة الإنسانية فى أوج صدقها ونُهاها . .

فليبصر ذلك الإنسان الفارع الطول ، الأصلع الرأس . المتفرح القدمين ، اللابس بردة بها إحدى وعشرون رقعة ، والحامل فى يُسراه دواة ، وفى يمناه قِرطاساً وقلماً . . يقرع أبواب الدور ، ويطلب إلى نساء المؤمنين اللواتى غاب أزواجهن فى الثغور وفى ميادين الجهاد أن يجلسن وراء الأبواب : ويُملين عليه رسائلهن إلى الأرواح ، فإن البريد على وَشْكِ أن يرحل ويسافر . . ! !

أو فليبصر ذلك الإنسان نفسه ، أميرَ المؤمنين « عمر » ، والظافر بالدنيا العريضة دنيا الروم وفارس ، يقرع الأبواب نفسها ، وينادى الزوجات

اللائى عاب أزواجهن :

« اذكرن لى حاجاتكن ، ومن كانت لها فى السوق حاجة ، فلتذكُرها لى ، أو لترسل معى خادمها إن كان لها خادم ، فإنى أخاف أن تُخدعن فى البيع والشراء » . . ! !

ثم يمضى إلى السوق ووراءه سِرْب طويل من الخدم ، وهناك يشترى بنفسه ، ويضع الحاجات فى السِّلال بيده . . ! !

أصحيح أن هذا الرجل عاش على ظهر الأرض يوما ، وكان أميراً للمؤمنين ، وكان يحيا هذه البساطة ، ويعدل هذا العدل ، ويُحْبِتُ ذلك الإخبات . . ؟ ؟ ! !

أصحيح أن رجلا ، اسمه « عمر » ، كان للمسلمين خليفة وإماماً . وفتح الله له فتحا مبينا ، هابته مُلوك الأرض ، وتدحرج عند قدميه طُعاتها وجَرت بين يديه كالأنهار ، الأموال والكنوز — يزوره وفد العراق يوما ومعه الأحنف بن قيس ، فيُفاجأون به والحر شديد ، والصيف قائظ ، منهمكا فى تطيب بعير من إبل الصَّدقة يطليه بالقطِران - ثم لا يكاد يرى ضيوفه ، وفيهم الأحنف حتى يناديه .

— « ضع ثيابك يا أحنف ، وهلُمَّ فأعنْ أمير المؤمنين على هذا البعير فإنه من إبل الصدقة ، وفيه حق للأمة ، والمسكين ، واليتيم » . .

فيقول له رجل من الوفد ، وقد أدهلته المفاجأة :

— « يغفر الله لك يا أمير المؤمنين . إن عبدا من عبيد الصدقة يكفيك هذا » .

فيجيبه عمر : « وأىُّ عبدٍ أعبدُ منى ومن الأحنف . . ؟ » ثم يستأنف تطيبه للبعير . . ! ! !

أصحيح هذا . . ؟ ؟

من حسن حظ البشرية أنه صحيح ، وأن لها من « عمر » معيناً لا ينضُبُ من الغبطة والعظمة والأمل . .

من حسن حظ البشرية ، أن « عمر » واحد منها ، لتعلم أنها تنطوى على إمكانات الكمال الذى تصبو إليه وتريده ، وأنه ليس عليها إلا أن تجلُو مواهبها ، وتصقُل مزاياها ومراياها . فإذا هى تخرج الخبء ، وتعطى الثمر ، وتنجب العظمة والكمال . . ! !

° ° °

إن بساطة عمر تكشف الحماقة الكبرى التى يخوض فيها كل من يأخذه الزهو والصَّلف بمنصب يناله ، أو نصر يبلغه ، أو ثروة يجمعها . فما الصلف والتكلف إلا عبء ثقيل يحمله المخدوعون به ، ويصطلون بعذابه وهم لا يشعرون . .

أما البساطة الصادقة التى عاشها « عمر » ، فتلك هى السعادة حقًّا ، السعادة التى يتمثل فيها رجوع النفس إلى جوهرها ، وتفوقها على كل خلابة وغُرور . . .

سبحانه ، ربُّ عمر . . ! ! !

لقد ألهمه رشده ، ووقاه شرَّ نفسه . ومَنحه من استقامة الشخصية وجلالها ما جعله نسيج وحده ، لا فى بلده وحده ، ولا فى عصره وحده ، بل ملء كل مكان ، وعَبر الزمان ، جميع الزمان . . ! !

حيثما نلقاه ، نلق بطولة روحه ، نلق بساطته وإخلاصه وصدقه . حتى ليتركنا فى حيرة ، كيف توفر لهذا الرجل ، كل هذا القدر من الدَّعَة ،

والأمانة ، والبساطة ، وهو الذى زادت أعداد الجند فى جيوشه على مئات الألوف ، وأصبحت الأموال تتكدَّس بين يديه فى أفناء المدينة أكواماً وتلالا . وأخذت الوفود من أرجاء الأرض القريبة والبعيدة ، تسعى إليه طالبةً الأَمْن ، وأحاطت به قلوب الشعوب التى حررها من ظلم الروم ، وعطرسة الفرس . . وأحاطت به فى هُيام وحب وفتون يسلُب الحليم لُبَّه . ! !

كل قوى الإغراء بالزهو ، والحض على الاستعلاء . ثم لا تجد أثارة أدنى أثارة من زهو أو استعلاء . بل على العكس تجد قِمماً تَرْحمُ الأفق . . . قمة الزهد ، وقمة العدل ، وقمة الورع ، وقمة البساطة والتواضع . . . شَوامخ يعلى الرجل بناءها بفضائل نفسه ، وبطولة روحه ، واستقامة نهجه . ؟ ؟ انظروا . . .

ها هو ذا يقترب من مشارف الشام ، وقد خرج أهلها لاستقباله ، فيلقاهم رجل قد امتطى جملا يجلس فوق وطاء من صوف خشن ، وقد دَلَّى رجلاه من شعبتى رحله ، فلا وِجاف ، ولا رِكاب ، يلبس قميصاً من قطن ، كثير الثقوب ، كثير الرقاع . . ! ! !

ويقبل الناس على الرجل يسألونه : أين أمير المؤمنين . . ؟ ؟

ألم تلق موكبه فى الطريق ؟ ؟

فيجيبهم الرجل بسهما « أمير المؤمنين أمامكم » فيُعذّون السير إلى أمام . . حتى يأتيهم الخبر من ورائهم بعد حين : أن أمير المؤمنين قد وصل أيلة ، ونزل بها . فيعودون مهرولين . .

ويدخلون على أمير المؤمنين حيث كان يجلس مع الناس وتكاد تصعقهم المفاجأة . فما أمير المؤمنين إلا الرجل الذى لقيهم يمتطى جملا والذى سألوه عن أمير المؤمنين ، فقال إنه أمامكم . ! !

ويؤتى له ببرذون مُطهّم عليه سرج جميل ، ورَحْل أنيق ، فيركض ركوبه ويقول : تحوّا عن هذا الشيطان . . ! !

فإذا قيل له : إن هذه بلاد لا تصلح بها الإبل ، يركب البرذون ولكن بعد أن يجرده من كل حلْية وزُخرف . وبعد أن يُلقى عن ظهره بالسرج الأنيق ، والرحل المزركش ، ويضع مكانهما ، الكساء من الصوف الذى كان يتخذه وطاء له إذا ركب ، ووسادة ينام عليها إذا نزل . . ! !

وفى رحلته الأولى إلى بلاد الشام يلقاه على أبواب مدينة القدس قواد جيشه وأمراؤه ، ممتطين صهوات الخيل ، وقد تمنطقوا بحلل من الديباج . .

فلا يكاد « عمر » يرى المشهد ، حتى ينزل من فوق دابته سريعاً ، ويده على الأرض تأخذ من طوبها وحصاها ، ويرى الأمراء والقواد ثم يقبل عليهم قائلا :

« سُرعان ما فُتتم ؟ أفى هذا الرى تستقبلون عمر . . . ؟ سرعان ما بدّلت نكم البطنة والترف ، وأنتم الذين لم تشبعوا إلا من عَمَيْن . . . . ! !

هذا رجل لم تكن البساطة ، والتواضع ، هواية له ، بل كانت دينا ، وفطرة ، وأمانة . .

إنه يلتقى ذات ليلة بسيدة تسير وحدها فى المدينة . حاملة قربة كبيرة فيقترب منها ويسألها عن أمرها ، فيعلم أنها ذات عيال ، وليس لها خادم ، وأنها تنتظر حين يرخى الليل أستاره ، فتخرج لتملأ قربتها ماء . فيأخذ منها القربة ويحملها عنها ، وهى لا تعرف من هو ؟ حتى إذا بلغ دارها ، قال وهو يناولها قربة الماء :

« إذا أصبح صباح غد ، فاقصدى عمر ، يرتب لك خادما ،

قالت : إن عمر كثير شغله ، وأين أجده . . ؟

قال : اغْدِى عليه ، وستجديته إن شاء الله تعالى . .

وتعمل المرأة بمشورة الرجل الطيب ، لكنها لا تكاد تذهب إلى عمر ، وتقف بين يديه حتى تصيح مبهورة : أنت هوإذن . . . ؟ !

ويضحك أمير المؤمنين . ثم يأمر لها بخادم ونفقة . .

* * *

لا ريب أن أمير المؤمنين لو خير بين هذه البساطة الصادقة ، وكل ما فى الدنيا من زينة وزخرف ، لما آثر على نعمة التواضع والبساطة شيئا . .

وإن الرجل الذى عاش حياته متفوقا ، وكانت أيامه فوق الأرض موكبا مستمرًّا من الانتصارات والسعدة - منذ كان فتى يصارع الفتيان فى سوق عُكاظ ، فيظفر بهم وينتصر عليهم . .

إلى أن أسلم . فكان إسلامه فتحا . . ثم هاجر ، فكانت هجرته نصرا . .

إلى أن صار أميرا للمؤمنين تتهاوى تحت ضرباته أركان العالم القديم كله . . ! !

هذا الرجل ، صاحب هذه الحياة الحافلة دوماً ، الظافرة أبدا . . كان أروع انتصاراته وأبهاها وأبقاها ، هذا الورع الذكى الجليل الذى أعطى دنيا الناس كافة ، ودنيا الحكام خاصة ، قدوة لا تَبلى ، ولا هى يوماً بنا صِلَة . . . ! !

قدوة تتمثل فى عاهل بركت الدنيا على عتبة داره مُثقلة بالمغانم والطيبات ، فسرَّحها سراحا جميلا ، وساقها إلى الناس ينثر فيهم طيباتها ويَدرأ عنهم مُصِلاَّتِها . . حتى إذا نفض يديه من علائق هذا المتاع ، استأنف سيره ومَسراه ، مُهرولا فى فترة الظهيرة وراء بعير من أموال الأمة يخشى عليه

الضياع . . أو مُنحنيا فوق قِدر ينضح فيه طعمة طيبة لامرأة غريبة أدركها كَرب المخاض . . أو مستقبلا فوق الرمال وتحت ظل النخيل ، وفدا من وفود الدنيا التى تقصد المدينة تباعاً ، باحثة لأمها ودولها عن مكان فى العالم الجديد الذى ينسقه « عمر » وبنيه . . أو صاعدا المنبر يخطب المسلمين ويذكرهم بأيام الله فى بردة تزدان بإحدى وعشرين رقعة أو تزيد . . ! ! !

* * *

وبعد :

أبقى شىء يقال . . ؟

أستغفر الله . . بل هل قلنا شيئاً من الكثير ، الكثير ، الذى يمكن أن يقال . ؟ ؟

ألا حبّذا تلك اللحظات اليانعة الممتلئة التى عشناها معه ...

ولْنقنع قبل أن تتقطع منا الأنفاس ، بتلك الخطى المحمورة التى تابَعْنا بها – قليلا من الوقت – رجُلا يسابق الزمان . . ! !

وإذا أردنا أن نُعبِّر عن انبهارنا البالغ أشُدّه ، فلنوفر على أنفسنا عناء مالا يُطمع فيه ولا يُقدر عليه ، ولْنتسعْ فى هذا الموطن كلمة عبد الله بن مسعود :

لله دُرُّ ابن الخطاب . . أىُّ امرئٍ كان . . ؟ ؟ ! !

* * *

كتب للمؤلف

١ – من هنا .. نبدأ
٢ – مواطنون .. لا رعايا
٣ – الديمقراطية ، أبداً
٤ – لدين للشعب
٥ – هذا .. أو الطوفان
٦ – لكى لا تحرثوا فى البحر
٧ – الله ، والحرية : ثلاثة أحراء
٨ – معاً على الطريق - محمد والمسيح
٩ – إنه الإنسان
١٠ – أفكار فى القمة
١١ – نحن البشر
١٢ – إنسانيات محمد
١٣ – الوصايا العشر
١٤ – بين يدى عمر
١٥ فى البدء كان الكلمة
١٦ – كما تحدث القرآن
١٧ – وجاء أبو بكر
١٨ – مع الضمير الإنسانى فى مسيره ومصيره
١٩ كما تحدث الرسول
٢٠ – أزمة الحرية فى عالمنا
٢١ رجال حول الرسول
٢٢ فى رحاب على
٢٣ – وداعاً ، يا عثمان
٢٤ – أبناء الرسول فى كربلاء
٢٥ معجزة الإسلام: عمر بن عبد العزيز
٢٦ عشرة أيام فى حياة الرسول
٢٧ – والموعد الله

رقم الإيداع	٢٠٠٤/٢٠٥٧٨
الترقيم الدولى ISBN	977-02-6751-1

١/٢٠٠٤/٦٧

طبع بمطابع دار المعارف (ج . م . ع .)